ديوان الإمام الشافعي

المسمّى

الجوهر النفيس في شعر الإمام محمّد بن إدريس

إعداد وتعليق وتقديم

محمد إبراهيم سليم

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - النزهة

مصر الجديدة القاهرة ت ٢٤٧٩٨٦٣ / ٢٤٨٠٤٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعـد :

فماذا أقول فى إمام يلتقى مع الرسول ﷺ فى عبد مناف ، ثم ينتهى به النسب الكريم إلى عدنان ؟

وكان كما يقول ابن خلكان :

« كثير المناقب ، جم المفاخر ، منقطع القرين ، اجتمع فيه من العلوم : العلم بكتاب الله عز وجل ، وسُنَّة الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وآثارهم ، واختلاف أقاويل العلماء ، وغير ذلك من معرفة كلام العرب ، واللغة العربية ، والشعر حتى إن الأصمعىّ ــ مع جلالة قدره ــ قرأ عليه شعر الهذليين وذلك مالم يجتمع فى غيره » ؟!

وماذا أقول فى إمام قال عنه الإمام أحمد بن حنبل حينما سأله ابنه :

أى رجل كان الشافعى ؛ فإنى سمعتك تكثر الدعاء له ؟

فقال : « يا بنى ، كان الشافعى كالعافية للبدن ، وكالشمس للدنيا !!

هل لهذين من خلف ، أوعنهما من عوض ؟! » .

ويُجيب التاريخ ــ على تعاقب عصوره :

لا .. لا .. لا عوض عن الشمس للدنيا .. ولا عوض عن العافية للبدن .. ولا عوض عن محمد بن إدريس لحلقات الدرس والبحث .

ومن أجل هذا كانت كل كلمة بدرت منه حكمة وكل عبارة قالها حقيقة ، وكل نظرة فى الحياة كانت ثاقبة تحمل إلينا تجربة ، فكيف لا نقبل على ديوانه ؟! ولم

لا يدرس أبناؤنا فى مدارسهم أشعاره ليضيفوا إلى حياتهم حياة وخبرة وتجربة ونظرات صائبة ؟!

وإليك موجز ترجمة الإمام لتتابع خطاه ، وتمشى على هداه .

صاحب الديوان

كما جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن أبى عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف القرشى المطلبى ، يجتمع مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف ، وباقى النسب إلى معد بن عدنان معروف .

لقى جده شافعٌ رسول الله ﷺ وهو مترعرع وكان أبوه السائب صاحب راية بنى هاشم يوم بدر ، فأسِر وفدى نفسه ، ثم أسلم فقيل له : لِمَ لَمْ تسلم قبل أن تفدى نفسك ؟! فقال : ما كنت لأحرم المؤمنين مطمعاً لهم فىّ .

وكان الشافعى كثير المناقب ، جمّ المفاخر ، منقطع القرين ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله عز وجل وسُنّة الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم وآثارهم ، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر ، حتى إن الأصمعى مع جَلَالَة قدرِه فى هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهُذليين مالم يجتمع فى غيره ، حتى قال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعىّ .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : مارأيت رجلًا قط أكمل من الشافعى ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى : أى رجل كان الشافعى ؟ فإنى سمعتك تكثر من الدعاء له . فقال : يابنى ، كان الشافعى كالشمس للدنيا ، وكالعافية للبدن ، فهل لهذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ .

وقال أحمد : ما بِتّ ليلة منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى وأستغفر له .

وقال يحيى بن معين : كان أحمد بن حنبل يَنْهَانا عن الشافعى ، ثم استقبله يوماً والشافعى راكب بغلة وهو يمشى خلفه ، فقلت له يوماً : ياأبا عبد الله ، تنهانا عنه وتمشى خلفه ؟! فقال : اسكت لو لزمت البغلة لانتفعت .

وحكى الخطيب فى تاريخ بغداد عن ابن عبد الحكم : أنه قال : لما حملت أم الشافعى به رأت كأن المشْتَرى خرج من فرجها حتى انقضَّ بمصر ، ثم وقع فى كل بلد منه شظية ، فتأول أصحاب الرؤيا أنه يخرج منها عالم يخصُّ علمه أهل مصر ، ثم يتفرق فى سائر البلدان .

وقال الشافعى : قدمت على مالك بن أنس وقد حفظت الموطّأ فقال لى : أحضر من يقرأ لَك ، فقلت : أنا قارىء فقرأت عليه الموطأ حِفْظاً ، فقال إن يَكُ أحد يفلح فهذا الغلام ! .

وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شىء من التفسير أو الفُتْيا التفت إلى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام ! .

وقال الحميدى : سمعت الزنجى بن خالد ــ يعنى مسلماً ــ يقول للشافعى : أفْتِ ياأبا عبد الله لقد ــ والله ــ آن لك أن تُفتى وهو ابن خمس عشرة سنة .

وقال محفوظ بن أبى نوية البغدادى : رأيت أحمد بن حنبل عند الشافعى فى المسجد الحرام ، يحدث فقلت : ياأبا عبد الله ، هذا سفيان بن عُيَيْنَة فى ناحية المسجد يحدث ، فقال : إن هذا يفوت وذاك لا يفوت .

وقال أبو حسان الزيادى : ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمَه للشافعى ، ولقد جاءه يوماً فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن ، فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل ، ولم يأذن لأحد عليه . والشافعى أول من تكلم فى أصول الفقه ، وهو الذى استنبطه .

وقال أبو ثور : من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس فى علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب . كان منقطع القرين فى حياته فلما مضى لسبيله لم يُعْتَضْ منه .

وقال أحمد بن حنبل : مامن أحد بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعى فى رقبته مِنّة .

وكان الزعفرانى يقول : كان أصحاب الحديث رقودًا حتى جاء الشافعى فأيقظهم ، فتيقظوا .

ومن دعائه : « اللهم يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير » وهو مشهور بين العلماء بالإجابة وأنه مجرب ، والله أعلم .

وفضائله أكثر من أن تُعَد .

ومولده سنة خمسين ومائة ، وقيل : إنه وُلد فى اليوم الذى مات فيه الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه ، وكانت ولادته بمدينة غزة وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم ، وحديث رحلته إلى مالك بن أنس مشهور ، وقدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة ، فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان وصوله إليها فى سنة تسع وتسعين ومائة ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى ، وقبره يزار بها بالقرب من المقطم ، رضى الله عنه ! .

قال الربيع بن سليمان المرادى : رأيت هلال شعبان وأنا راجع من جنازته ، وقال : رأيته بعد وفاته فى المنام ، فقلت : ياأبا عبد الله ، ماصنع الله بك ؟ فقال : أجلسنى على كرسى من ذهب ، ونثر علىّ اللؤلؤ الرطب .

وحكى الزعفرانى عن أبيه : أن الشافعى قال : مات أبى وهو ابن ثمان وخمسين سنة .

وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل العلم والتفسير والفقه والنحو وغير ذلك على ثقته وأمانته وعدالته وزهده وَوَرَعِه ونزاهةِ عِرضه ، وعِفّةِ نفسه ، وحُسْنِ سيرته ، وعُلُوِّ قدره وسخائه ، وله أشعار كثيرة .

شخصية الشافعى

إذا ذهبنا نتقصى شخصيته الإنسانية وجدناها غاية فى القوة والسمو والحيوية ،

وتعدد الجوانب وسعة الأفق ، وذلك بالإضافة إلى ما أثر عنه من براعة وذكاء[1] .

يتحدث عنه الذين عاصروه أنه كان محبباً إلى نفوس عارفيه ، وكان إشعاعه ، ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب الناس وثقتهم ، وأنه قد توافرت له صفات الداعية صاحب المذهب ، هذه الصفات التى تتمثل فيما أثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، وإشراق وجه ، وبعد عن الغضب ، وتواضع ، وخفض جناح ، وسلامة صدر ، وصفح عمن يسئ إليه ، وبُعْد عن التعصب وإملاء الرأى .. فقد كان يعذر مخالفيه فى الرأى ويقبل منهم .

ويرجع ذلك إلى تلك الأصالة النفسية التى كونت طابعه ، طابع الزعامة .

وقديماً كان الصوت الجميل ، وطلاقة اللسان من أدوات الداعية الفذ .

ويرجع السر فى فصاحة « الشافعى » إلى أنه أقام بالبادية فلُقِّن اللسان العربى .

إنه نموذج فذ ، وقدوة صالحة ، نعيش معه فى أفكاره ، وتجاربه ، وتتجلى لنا من خلال شعره فلسفته فى الحياة فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى خلاصات التجارب السلوكية فى البيئة العربية لتنتفع بها ، وتسير فى هديها .

إن فى أشعاره من التركيز ، ونفاذ البصيرة ، ودقة الملاحظة وحسن التعبير ما يجعل الألسنة تتلقفها ، فتذيع وتنتشر وتصبح سلوكاً وعملاً ومنهجاً لحياة راضية آمنة .

الجوهر النفيس فى شعر الإمام محمد بن إدريس

جاء فى كتاب التوجيه الأدبى :

« يُكثِر الشعراء من نظم أبيات يضمنونها نظرة فلسفية فى الحياة ، وهذا الضرب

---

(١) مجلة الرسالة الأستاذ أنور الجندى العدد ٩٩٠ سنة ١٩٥٢م .

من النظم قد أطلق عليه اسم « الأدب » على وجه التخصيص ، وقد تتخذ هذه الأشعار صورة النصيحة والإرشاد كقول محمد بن بشير :

لا تيأسَنّ وإن طالت مُطالَبةٌ ... إذا استعَنْتَ بِصَبْرٍ أن تَرَى فَرَجا
أخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أن يَحْظَى بحاجَتِهِ ... ومُدْمِنِ القَرْع للأبواب أن يَلجَا

وهذا الضرب كثير جداً فى الشعر العربى .

والنوع الثانى : أن يعمد الشاعر إلى تقرير الحقيقة المجردة كقول أبى الطيب ، وهو من أكثر الشعراء نظماً فى هذا الباب :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

وباب الأدب من أشرف أبواب الشعر وأسماها ، وأبياته الجيدة كثيراً ما تجرى مجرى الأمثال ، وليس فى أبواب الشعر باب يكثر الاستشهاد به كباب « الأدب » .

ومن هنا كان « ديوان الشافعى » كنزاً من كنوز الأدب ، ونبعاً صافياً يستقى منه الأبناء والآباء دروس الحكمة ، وألوان التجارب الحياتية يقدمها إمام كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس !

إنه عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً . وحسبه ما قاله الأئمة فيه :

فيقول المبرد : كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس .

ويقول ابن هشام : الشافعى كلامه لغة يحتج بها .

ومن يتتبع ديوانه يجد أنه كان يميل إلى المقطعات دون القصائد ، وأن شعره من السهل الممتنع ، فلا تكاد تعثر فيه على غريب ، ومن أجل هذا سهل الاستدلال به والاقتباس منه .

ولقد امتلأت به المراجع والموسوعات اللغوية والأدبية وتناثرت منه مقطعات فى كتب الفقه والحديث وتناقلها رواد الحكمة جيلًا بعد جيل ، فعاشت على كل لسان ، وراح يرددها الرائح والغادى !

ومن يتتبع أبواب الشعر من المدح والهجاء ، والغزل ، والفخر ، والاعتذار يجد أن

الشافعي قد نأى عنها بجانبه .. ومن هنا نرى أن لشعره مذاقًا خاصًا ، وطعمًا محبوبًا مفضلاً لدى الخاصة والعامة !

إنه يقول :

ولـولا الشـعر بالشـعراء يـزرى لكنــت اليــوم أشـعر مـن لبيــد

لقد اختار أفضل الشعر ، وأشرف أبوابه وأسماها مما لا يزرى به ، ولا يحط من قدره ؛ وإن دارس شعره ليلمس فيه تركيزاً على العقيدة الصحيحة فى الله ، والكون ، والحياة ، وهى أساس البناء الذى يضعه الإسلام لتكوين المسلم ، وهى القوة الدافعة للحياة كما يراها الإسلام . ومنها يستمد طاقته ، وبها يحدد طريقته ، ويبلغ غايته .

ولقد جُمع ديوان الشافعى من قبل ولكنه لم يعرض على الصورة اللائقة به ، والتى تحقق الانتفاع الكامل بما جاء فيه . فما هكذا يعرض شعر الحكمة والنصح والإرشاد والخبرة والتجربة الحياتية .

إن عرض المقطوعات فى إطار الجو النفسى الذى قيلت فيه ، ومعايشة القارىء للظروف التى انفعل بها الشاعر ، والتمهيد لكل مقطوعة ، والتعليق عليها مما يجعل القارىء يحيا مع الشافعى ويعيش تجربته ويفتح لها قلبه وعاطفته فتؤتى أكلها وتحقق الهدف المرجو منها ، وتتيح للقاعدة العريضة من القُرّاء استفادة أكثر ومتعة أفضل ، وسعادة أجمل .

وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، فقد حرصت كل الحرص على اختيار العنوان الملائم لكل مقطوعة . ولم يفتنى أن أرجع إلى ما تضمنته كتب الأدب من تلك المقطوعات ، إلى جانب مخطوطة الديوان .

ولم يكن بُدّ من أن أدرس حياة الشافعى باحثاً عن الأسباب والدوافع وراء كلماته ! والتجارب التى عاشها ، والأحداث التى مر بها .

ومهما يكن من شىء فسوف يلمس القارىء معالجة جديدة ، وإضافات فريدة ، ودراسات مفيدة .

ولعلى بذلك أكون قد أحسنت . والله من وراء القصد ،،،

القاهرة فى ... المحرم سنة ١٤٠٩ هـ ــ سبتمبر سنة ١٩٨٨ ــ محمد ابراهيم سليم

من تجارب الإمام
(مع الأيام ــ مع النفس ــ مع القضاء)

ثلاث تجارب فى ثلاثة عشر بيتاً جديرة بالنظر والتأمل ..

التجربة الأولى ــ مع الأيام :

١ ــ دَعِ الأيّامَ تَفْعَلُ ما تَشَاءُ وَطِبْ نَفْسًا إذا حَكَم القَضَاءُ
٢ ــ ولا تَجْزَعْ لِحادِثَةِ الليالى فَمَا لِحَوادِثِ الدُّنْيا بقاء
٣ ــ وكُنْ رَجُلاً على الأهوالِ جَلْداً وشِيمَتُك السَّمَاحَةُ والوَفاء

التجربة الثانية ــ مع النفس :

٤ ــ وإن كَثُرت عُيوبُك فى الْبَرَايَا وسَرّك أن يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ
٥ ــ تَستّر بالسّخاء فكُلُّ عَيْبٍ يُغَطّيهِ ــ كما قيل ــ السَّخاء
٦ ــ وَلَا تُرِ للأعداء قَطُّ ذُلّاً فإن شماتَةَ الأعْدا بَلَاءُ
٧ ــ ولا تَرْجُ السَّمَاحَةَ مِنْ بَخيلٍ فما فى النار لِلظَّمآن مَاءُ
٨ ــ ورِزْقُك لَيسَ يُنقِصُه التّأنّى ولَيْسَ يَزِيدُ فى الرّزق العَناء
٩ ــ ولا حُزْن يَدُوم ولا سُرورٌ ولا بُؤسٌ عليك ولا رَخاء
١٠ ــ إذا ما كُنْتَ ذا قَلْبٍ قنوعٍ فأنْت ومَالِك الدُّنْيا سَوَاء

التجربة الثالثة ــ عندما ينزل بنا الموت :

١١ ــ ومَنْ نَزَلَتْ بِسَاحَتِه المنايا فَلَا أَرضٌ تَقِيهِ وَلَا سَمَاءُ
١٢ ــ وأرضُ الله واسِعَةٌ ولكنْ إذَا نَزَل القَضَا ضَاقَ الفَضَاءُ
١٣ ــ دَعِ الأَيَّامَ تَغْدِرُ كُلَّ حِينٍ فَمَا يُغْنِى عَنِ الْمَوْتِ الدّوَاءُ

[جواهر الأدب ، وأدب الفقهاء]

وقفة مع النص :

١ ـــ فى البيت الأول دعوة إلى التسليم والرضى بحكم القضاء بعد أن يتخذ الإنسان الأسباب ، ويبذل الجهد . ولْتطب نفسه بعد ذلك بما يكون .. ولتكن مشيئة الله مادام قد صح عزمه .

٢ ـــ إن كثيرًا من الناس يَنْفَدُ صبرهم عند نزول أحداث الليالى ويجزعون ، ولكن هل تدوم الدنيا على حال ؟! جدير بك ألا تجزع عند الأحداث فليس لها بقاء ، ومع العسر يسر .

٣ ـــ وعند الأهوال والشدائد تظهر الإخوان ؛ فكن رجلاً وتحلّ بالبذل والوفاء .

٤ ، ٥ ـــ وكل منا يحب أن يستر عيوبه عن الناس (البرايا) وخير ما يستر العيوب البذل ، فكن مِعطَاءً يستر الناس عيوبك .

٦ ـــ الإسلام حريص على أن يبدو المسلمون فى كامل قوتهم وعزتهم ، حتى لا يشمت بهم أعداؤهم . من أجل هذا كانوا أعزةً على الكافرين وإن كانوا فى واقعهم أذلّة على المؤمنين ! وهنا ينصح لنا الإمام الشافعى : ألا نُرى الأعداء مِنّا ذُلًّا لكيلا يشمتوا بنا والشماتة بلاء وأى بلاء !

٧ ـــ البخيل عدو الله وعدو الناس لا جدوى منه ولا أمل فيه ومثله فى حالة الشدة كمثل النار للظمآن هل تروى عَطَشاً ؟! وهل يطمع إنسان أن يجد الرِّىّ والماء فى النار ؟

٨ ـــ رزقك مضمون ، والاعتدال فى طلبه مطلوب ، فلا تراخى ولا إرهاق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فلم التقاتل والتناحر والتكالب ؟

٩ ـــ هكذا شأن الأيام : حزن وسرور ، وبؤس ورخاء ، ليس فيها شئ دائم وذلك يعطينا الأمل .

١٠ـــ القناعة هى سر السعادة ، ويبدو القنوع ومالك الدنيا سواء .

١١ـــ١٣ـــ عندما ينزل الموت فلا وقاية منه ولا مهرب ، فهو الداء الذى ليس له دواء ، فهل أعددت العدة ليوم اللقاء ؟!

الدعاء وهل يرد القضاء ؟!

الدعاء مُخّ العبادة :

وقد طلب الله منا أن ندعوه : ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ وهناك من يحلو لهم أن يحتقروا الدعاء ويزدروه وقد أخبرنا النبى ﷺ أنه « **لا يردّ القضاء إلا الدعاء** » (رواه الترمذى وابن حبان) .

وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد .

وإذا كانت الليالى من الزمان حبالى يلدن كل عجيب ؛ فإننا لا ندرى ما فى ليل الأحداث من سهام مصوبة إلينا ..

إن لكل شئ أمداً وغاية ، وللأمد انقضاء ، وتبقى الكلمة الحلوة على ألسنتنا : يارب !

وينكر الإمام المجرب على من يهزءون بالدعاء صنيعهم فيقول :

١ ــ أَتهزَأُ بالدُّعَـاءِ وَتـزْدَريـه   وما تَـدْرى بِمَا صَنعِ القَضَـاءُ
٢ ــ سِـهَامُ اللَّيْلِ لا تُخْطِـى   لَهَـا أَمَدٌ ، ولِلأَمَدِ انْقِضَـاءُ

حب النساء وهل هو بلاء ؟!

كثر الحديث عن الحب ، وبعضهم يرى أن حب النساء بلاء ما بعده بلاء !

ولكن للشافعى رأيًا يقرره فى بيتين ، تُرى ماذا يقول ؟

١ ــ أَكْثَرَ الناسُ فى النّساء وقالوا :   إن حُـبّ النّسَاء جَهْـدُ البَـلاء
٢ ــ ليسَ حُبّ النساء جَهْدًا ولكن   قُرْبُ مَن لَا تُحِبُّ جُهْدُ الْبَلاءِ

وأراك تقول :

نعم إن قرب من لا تحب هو البلاء !

وقريب منه قول القائل :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوّا له ما من صداقته بُدّ

فراق الأحِبّة !

المرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، وليس كثيراً ألف خِلٍّ وصاحب !

فقد خُلِق الإنسان مدنياً بطبعه يحتاج إلى إلْف يعاشره ، وأنيس يسامره ، فإذا ما كان فراق الأحِبّة أحس الإنسان بالوحشة وتمنى الموت بعدهم

وللإمام الشافعى أحِبّة فارقهم فى رحلاته ، فعاش تجربة الغربة ، ومرارة الفراق .. إنه يقول :

« لا سرور يعدل صحبة الإخوان !

ولا غم يعدل فراقهم !

والغريب من فقد إلْفَه ، لا من فقد منزله ! »

ويقرر حسرته على فراق الإلف فى البيتين الآتيين :

١ ـ واحَسْرةً للفَتَى ساعةً يَعيشُها بعد أَوِدَّائِه
٢ ـ عُمْرُ الْفَتى لو كَانَ فى كفّه رَمَى به بَعْد أَحِبَّائه !

قافية الباء ب

سوء التقدير

كم عانى الأدباء والشعراء والفقهاء والمفكرون من سوء تقدير مجتمعاتهم .

وفى الأبياتَ الآتية شكوى حزينة من اختلاط المفاهيم وسوء التقدير ، وعدم التفرقة بين الذهب والنحاس .

ويا ويل الأديب من مجتمع يساوى الرأس بالذنب !

إن الناس معادن .. فضل الله بعضهم على بعض .. فهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟! يقول الشافعى :

١ ــ أصْبَحْتُ مُطَّرَحاً فى مَعْشَرٍ جَهِلُوا
حَــقَّ الأدِيـبِ فَبَاعُـوا الـرّأسَ بالـذَّنَـبِ

٢ ــ والنـاسُ يجمعهـم شَـمْلٌ وبينَهُـمُ
فى العَقْلِ فَرْق ، وفى الآدابِ والحَسَبِ

٣ ــ كمثل ما الذّهَب الإبريزِ يَشْرَكَهُ
فـى لَوْنـه الصُّفْـرُ ، والتّفْضِيـلُ للـذَّهَـبِ

٤ ــ والْعُودُ لَوْ لَم تَطِبْ مِنْه روائِحُه
لـم يَفْرِق النَّـاسُ بين الْعُـود والحطب !!

[معجم الأدباء لياقوت]

الهـوى والعقـل

ورد النهى الكريم عن اتباع الهوى :

﴿ ولا تَتّبِـع الهـوى ﴾

والهوى ميل النفس عن الحق إلى ما تشتهى ! وعلى الإنسان أن يحكم عقله ويخالف هواه ، ويرشدنا الإمام الشافعى إلى ما يخرجنا من الحيرة حين يختلط علينا الخطأ بالصواب .. إنه يقول :

١ ــ إذا حَارَ أمْرُك فى مَعْنَيَيْن ولم تَدْرِ حَيْثُ الْخطَا والصّواب
٢ ــ فخالِفْ هَوَاك فإن الْهَوى يَقُودُ النُّفُوسَ إلى ما يُعَاب

[مكاشفة القلوب]

هذه هى الدنيا !

يُخْتَبر فيها الصالحون ، ويبتليهم الله بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ..

وبشر الصابرين .

كم فيها من مفارقات جاع فيها الأنبياء كرامةً وشبعت فيها بطون البهائم !

الأسود وهى ملوك الغابة تموت جوعاً ، بينما الكلاب تنعم بما لذ وطاب من لحوم الضأن !

ومن عجب أنك تجد من ذوى الحسب من يفترش التراب .. بينما ينام العبيد على حرير ! ولله فى خلقه شئون يقول الشافعى فى نظرة تأملية إيمانية :

١ ــ تَمُوتُ الأُسْدُ فى الغَابَاتِ جُوعًا ولَحْمُ الضّأْنِ تَأْكُلُه الكِلَابُ
٢ ــ وعَبْدٌ قَدْ يَنَامُ على حَرِيرٍ وذو نَسَبٍ مفارشُه التُّرابُ

عندما تقترب نهاية الإنسان !
ويشتعل الرأس شيبا !

١ ــ خَبَتْ نارُ نَفْسِى باشْتِعَالِ مَفَارِقى
وأظْلَمَ لَيْلِى إذْ أَضَاءَ شِهابُها

٢ ـ أَيَا بُومَـةً قَـدْ عَشَّشَتْ فَـوْقَ هَامَتِي
ـ عَلَى الرّغْمِ منى ـ حِينَ طَارَ غُرابُها
٣ ـ رَأَيْـتِ خَـرابَ الْعُمْـرِ مِنِّى فَزُرْتِنِى
ومَـأْوَاكِ مِـنْ كُـلِّ الـدِّيـارِ طَرابُهـا
٤ ـ أأنْعَـمُ عَيْشًـا بَعْدَمَـا حَـلّ عَارِضـى
طَـلَائـع شَـيْـبٍ لَيْـسَ يُغْنِى خِضَابُهـا ؟!
٥ ـ وعِـزَّةُ عُمْـرِ المـرْءِ قَبْـلَ مَشِـيبِهِ
وقَـدْ فَنِيَـتْ نَفْـسٌ تَـوَلَّـى شَـبَابُهـا
٦ ـ إذا اصْفَرَّ لَوْنُ المرْءِ وابيَضّ شعْرُه
تَنَغَّـصَ مِـنْ أيّامِـه مُسْـتَطَابُـهـا
٧ ـ فَـدَعْ عِنْـك سَـوْءاتِ الأمـورِ فإنها
حَـرَامٌ علـى نَفْـسِ التّقِـىِّ ارتِـكَابُهـا
٨ ـ وَأَدِّ زكَـاةَ الجَـاهِ واعْلَـم بأنّهـا
كَمِثْـلِ زَكَـاةِ المـالِ تَـمَّ نِصابُهَـا
٩ ـ وأَحْسِنْ إلى الأَحْرارِ تملِكْ رِقَابَهم
فَخَـيْرُ تِجَـارَاتِ الكِـرَاءِ اكتسـابُها
١٠ـ ولا تَمْشِيَنْ فى مَنْكِبِ الأَرْضِ فاخِراً
فَعَمَّـا قَلِيـلٍ يحتويـك تُـرَابُـهـا
١١ـ ومَـنْ يَـذُقِ الدنيا فإنى طَعِمْتُها
وسِـيـقَ إلينـا عَـذْبُهـا وعَـذَابُهـا
١٢ـ فلـم أَرهـا إلا غُـرُوراً وبـاطِـلاً
كمـا لاحَ فـى ظَهْـرِ الفَـلاةِ سَـرابُها
١٣ـ ومَاهِىَ إلا جِيفَـةٌ مُسْـتَحِيلَةٌ
عَلَيْهـا كـلابٌ هَمُّهُـنّ اجتذابُهـا

١٤ ــ فإن تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْماً لأهَلِها
وإن تَجْتَذِبْهَا نازعتك كِلَابُها
١٥ــ فَطُوبَى لِنَفْسٍ أولِعَتْ قَعْر دَارِها
مُغَلّقَةَ الأبْوابِ مُرْخًى حِجَابُها

وقفة مع النص :

١ ــ عندما اشتعل الرأس شيباً ، وبدا الشيب فى مفرق الرأس انطفأت نار حماستى وهمتى !
وعندما أضاء الشيب ليل شَعْرى .. أظلم ليلى وضعف بصرى !

٢ ــ ومنذ أن ذهب سواد شعرى وحل محله ذلك الشيب الأبيض أحسست أنه قد طار غراب رأسى لتعشش فيه تلك البومة البيضاء !

٣ ــ وما ذلك إلا لأنها رأت خراب العمر منى فزارتنى ، ولا عجب ؛ فمأواها فى كل الدنيا الديار الخربة !

٤ ــ وعندما يرى الإنسان نذير الشيب وطلائعه بصفحتى خده لا يتسنى له أن ينعم عيشاً حيث لا يجدى صبغ الشيب !

٥ ــ لا عزة للمرءِ بَعْد مشيبه ، فعندما يتولى الشباب تفنى النفس .. وعزة عمر المرء قبل المشيب ، وعلى الإنسان أن يستثمر شبابه فيما يعود بالنفع .

٦ ــ وعندما يصفرّ لون المرء ، ويبيضّ شعره يذهب صفاء الحياة ونعيمها ، ويحل الكدر ، ويُمسى منغصاً فلا شئ فى حياته يُستطاب ويُسْتَلذ !! إنها سُنَّة الحياة !!

٧ ــ وعلى المرء أن يهجر ــ على الفور وقبل حلول الشيب ــ قبيح الأمور وما ساء فعله منها ، فحرام أن يرتكبها تقىّ يخشى الله ويخافه .

٨ ــ وعلى الإنسان ــ عندما يكتمل شبابه ــ أن يؤدى زكاته شاكراً لله أنعمه .. فالشباب نعمة .. والجاه والمنزلة نعمة والمال نعمة .. ولكل نعمة زكاة .. وكما أن المال

تجب فيه الزكاة إذا اكتمل النّصاب فكذلك نعمة الجاه والشباب !

٩ ـــ إن أحسن ما يتاجر فيه الكرام اكتساب الأحرار بالإحسان إليهم كما قال آخر :

أحسن إلى الناس تستعبد قُلُوبَهم فطالما استَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ

١٠ـــ وعلى العاقل أن يأخذ العبرة ، فيتخلى عن الكبر والتفاخر كما قال آخر :

*** ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ***

فغداً يحتويه التراب ، ويصبح تراباً ، ويصح فيه قول أبى العلاء :

خفّفِ الوطء ، ما أَظُنّ أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد !!

١١ ، ١٢ـــ من يذق الدنيا حلوها ومُرّها ، وسعادتها وشقاءها يتبين له أنها ليست إلا غروراً وباطلاً ، وسراباً كذلك الذى يحسبه الظمآن فى الصحراء ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً !!

١٣ـــ إن الذين يقتتلون عليها ليسوا إلا كلاباً حول جيفة استحالت وتغيرت وأنتنت وكل همهم اجتذابها .

١٤ـــ ومن يبغ السلامة لنفسه يجتنبها ؛ فإنه إن شارك فى اجتذابها نازعته كلابها !

١٥ـــ والحَلّ : أن يلجأ إلى قعر داره ، وأن يُغَلّق الأبواب ويُرخى الأستار والحجاب لعله يبعد عن تلك الكلاب وطوبى له بهذا البُعد !

والإمام الشافعى لا يرضى للمسلمين أن يقتتلوا على الدنيا كالكلاب وإنما يدعو إلى التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل والبذل والإحسان إلى الأحرار والتواضع ليسعد الجميع بالحياة فى ظل شريعة الله !

ولا يظنن أحد أن الأبيات تحمل دعوة إلى الانعزالية أو السلبية وإنما هى نظرات فى الحياة وأخذ العبرة منها !

سلوك الكبار مع الأنذال

النذل الحقير يحقد على الأفاضل فضلهم وشرفهم ، وكل همه أن ينال منهم ويلوث

سمعتهم ، فما أسرع ما ينال من الشرفاء بسببهم !

والإمام الشافعى ــ وقد ابتلى بمثل هؤلاء ــ يرى : أن يتزايد الإنسان رفعة ، فلا ينزل إلى مستواه .

إن هذا هو الصواب ، وليس عيباً ، إنما العيب أن نبادله سبًّا بسبٍّ ، وألا نترفع عن سبه .

ألا وإن هذا السلوك القويم ينبع من تقدير الإمام لنفسه ، وعزتها عليه ،وإلا لمكّنها من كل نذل حقير لتكيل له الصاع صاعين .

وأراك تسألنى :

مــن النـــذل ؟

وأجيب : كل من كان خسيس الأصل حقيراً فهو نذل والجمع أنذال .

وتعود فتسأل : ماذا قال الشافعى فى معاملة الأنذال ؟

ويجيب الشافعى :

١ ــ إذا سَبّنى نَـذْلٌ تَـزَايَدْتُ رِفْعَةً
وما العَيْب إلا أَنْ أَكُـونَ مُسَـابِبُـهْ

٢ ــ ولَوْ لَمْ تَكُن نَفْسى عَلَىّ عزيزةً
لمـكّنْتُهـا مــن كُـلِّ نـذْلٍ تُحَـارِبُـه

٣ ــ ولو أنّنِى أسْعَى لنفسى وَجَدْتَنِى
كَـثِيرَ التّــوَانِـى لِلّـذى أنــا طَـالِبُـه

٤ ــ ولِكِنّنِى أسْـعَى لِأَنْفَـعَ صـاحِبى
وعَارٌ عَلَى الشّبْعَانِ إنْ جَا عَ صَاحِبُه

وأراك تقول بعد هذه النصيحة الغالية :

إن الشافعى ليس أنانياً ولكنه يؤثر غيره على نفسه ، ومن أجل ذلك نراه يسعى

لينفع صاحبه ، فعار على الشبعان أن يبيت وجاره جائع !

داوِ السفاهَةَ بالحلم

كل من جرّب أن يَردّ على سفيه خفيف جاهل طائش ندم على ما كان منه !

إننا لن نسلم من لسانه ، وقد يتطور الموقف إلى ما لا تحمد عقباه ، ومن أجل هذا يقدم الشافعى ــ رضى الله عنه ــ أغلى نصائحه : الصمت والصبر . شأنه شأن عود « البخور » كلما زاد إحراقه انتشرت رائحته العبقة الفواحة وشذاه العطر الجميل ..

ألا تراه يقول :

١ ــ يُخاطِبنى السّفِيهُ بكُلِّ قُبْحٍ فأكْــره أنْ أكُــونَ لــه مُجيبَــا

٢ ــ يزيـدُ سَفَاهَةً فأزيـدُ حِلْماً كعُــودٍ زاده الإحــراقُ طِيبَــا

البُخــل .. والظُلــم

لقد اختبر الشافعى أبناء الدنيا فلم ير فيهم إلا بخيلاً وظالماً .

فكيف عامل هؤلاء وأولئك ؟

أما البخيل فعلينا أن نقطع الرجاء منه بسيف القناعة ، فالغنى ليس بكثرة المال ، ولكنه غنى عن المال ، والغنى الحق من استغنى عما فى أيدى الناس .

أما الظالم فالله منتقم ولن يفلت من صروف الليالى وأحداثها ، وفى التاريخ عبرة لمن أراد أن يعتبر ، يقول الشافعى :

١ ــ بَلَـوْتُ بنى الـدُّنْيا فَلَـمْ أرَ فِيهِـمُ

سِوَى من غَـدَا والبُخْـلُ مِلْءُ إهَـابِـه

٢ ــ فَجَرّدْتُ من غِمْدِ القناعةِ صَارِماً
قَطَعْتُ رجائى مِنْهُم بِذُبَابِه

٤ ــ فَلَا ذَا يرانى واقِفاً فى طَرِيقِهِ
ولَا ذَا يَرَانِى قاعِداً عِنْدَ بَابِه

٥ ــ غَنِىّ بلا مالٍ عن الناسِ كُلِّهم
وليس الغِنَى إلّا عَنِ الشَّىءِ لَا بِه

٦ ــ إذَا ما ظَالِمٌ اسْتَحْسَنَ الظُّلْمَ مَذْهَباً
ولَجَّ عُتُوًّا فى قبيح اكتسابه

٧ ــ فَكِلْهُ إلى صَرْفِ اللَّيالى فإنها
سَتَدْعِى له ما لَمْ يَكُنْ فى حِسَابِه

٨ ــ فَكَمْ رَأَيْنَا ظَالِماً مُتَمَرّداً
يَرىَ النَّجْمَ تيها تحت ظِلِّ رِكَابِه

٩ ــ فعَمَّا قَليلٍ وَهُوَ فى غَفَلَاتِهْ
أناخَتْ صُرُوفُ الحَادثَاتِ ببابِه

١٠ــ فأصْبحَ لا مالٌ ولا جَاه يُرْتَجى
ولا حسناتٌ تَلْتقى فى كِتَابِه

١١ــ وجُوزِىَ بالأمرِ الذى كان فاعِلاً
وصَبَّ عليه الله سَوْطَ عَذَابِه

وقفة مع النص :

١ ــ لقد بَلا الشافعى بنى دنياه واختبرهم فلم ير فيهم إلا من مُلِئ بُخْلاً فاحتوى جلده على البُخل !

فماذا فعل ؟

٢ ــ لقد تسلح بالقناعة ــ والقناعة كنز لا يفنى ــ واستل من غِمْدها سيفاً صارماً قاطعاً يقطع كل أملٍ وكل رجاء فى مثل ذلك البخيل ــ بذُبابه وحَدّه .

٣ ــ وبسيف القناعة انقطع عن ذلك البخيل فلم يعد أحد يراه واقفاً فى طريقه أو عند بابه ؛ فلقد استغنى عنه !

٤ ــ إن الغنى غنى النفس .. والغنى غِنًى عن الشئ واستغناء عنه لا غِنىً به . فهو مِمَّن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

دخل أعرابى البصرة فسأل صفوةً من الناس : من سيد هذا المِصْر ؟

فقالوا : الحسن البصرى .

فقال : بم ساد أهله ؟

قالوا : استغنى عما فى أيديهم من دنياهم ، واحتاجوا إلى ماعنده من أمر دينهم !!

إن فقراء النفوس مهما أوتوا من المال فسوف يظلون من خوف الفقر فى فقر ، إنهم فقراء فى داخلهم فلا يملأ عين ابن آدم إلا التراب !

أما أغنياء النفوس فهم يستغنون بالله عن الناس ، وهذا هو الغنى الحقيقى ، وتلك هى القناعة .. ألا وإن أغنى الناس من استغنى عما فى أيدى الناس !

٥ ، ٦ ــ **أما الظالم** : الذى ارتضى لنفسه أن يكون ظالماً وتمادى فى ظلمه وتجبره وسوء أعماله ، فإن الليالى كفيلة بتأديبه ولفت نظره وإيقافه عند حده بما تحمله له من مصائب ونوائب لم يعمل لها حساباً ، ولم يفكر وهو يظلم أنها ستحلّ به يوماً مّا .

ولكن الله مع المظلوم حتى يُرَدّ إليه حَقُّه !

٧ــ ١١ــ والأيام فيها العظة والعبرة لكل ظالم :

فكم من ظالم بغى وتكبر وتجبر تيهاً حتى أنه كان يرى النجم أدنى منه منزلة وبينما هو فى غفلته إذا بصروف الدهر ومصائبه تحيط ببيته وتحل عند بابه كما تبرك الإبل والجمال فى مباركها ، وفى غمضة عين فقد كل شئ ! فقد المال .. وفقد الجاه والمركز والسلطان ، وخسر دنياه وآخرته وإذا كتاب أعماله مجرد من الحسنات ، فلقى جزاءه العادل ، وصب الله عليه سوط عذاب ! وهكذا يكون جزاء الظالمين !

حُبّ من طرف واحد !

إن الحُبّ من طرف واحد ليس حباً ، إنما الحب مبادلة ومشاركة وجدانية .

ومن البلاء أن تحب إنساناً ولا يحبك ، وكلما أقبلت يصد عنك بوجهه ، ولا يحاول أن يبادلك حبًا بحب ومع هذا فأنت تلح ولا تعامله بالمِثْل ، ولا تقف منه موقف الذى يعمل بالحكمة القائلة :

« **زُرْ غِبًّا تَزْدَد حُبًا** » : أى لا تُلِحّ فى الزيارة وزُرْ يوماً بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، ودع الإلحاح جانباً ! كى تكون محبوباً ، فإن البلاء أن تحب إنساناً ولا يحبك ..

ويالها من تجربة مريرة !!

حدث ياقوت الحموى بإسناد رفعه إلى ابن عمر الشافعى قال : كان لأبى عبد الله الشافعى امرأة تزوجها من قريش بمكة وكان يمازحها ويقول هذين البيتين !!

١ ـ ومـن البَلِيّـة أن تحِـ ـبَّ ولا يُحِبُّـك مَـنْ تُحِبّـهْ

٢ ـ ويَصُدّ عنك بوَجْهِـه وتُلِـحُّ أنـت ؛ فـلا تُغِبُّـهْ

اللـه حسـبى !

المؤمن الذى عرف ربه يواجه به أعداءه !

فيكفى المؤمن عند مواجهة الخطوب والشدائد أن يكون الله حسبه وكافيه !

ولقد مدح الله المؤمنين بقولهم : حسبنا الله ! .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ــ ١٧٤] .

وفى هذين البيتين يواجه الشافعى كل خطوب الدنيا بتوكله الحق على ربه ، واعتماده عليه ومادام الحب والود قد صح بين العبد وربه فالكل هَيِّن :

أَنْتَ حَسْبِى وَفِيكَ لِلْقَلْبِ حَسْبُ ... وبِحَسْبِى إن صَحّ لى فيك حَسْبُ
لا أُبَالِى مَتَى وِدَادُكَ لى صَحّ ... من الدهر ما تَعَرّضَ لى خَطْبُ

وأراك تواجه الشدائد بقولك : الله حسبى ! وبحسبى !

ميزان التفاضل عند الشافعى

ذات يوم تحركت وفود التهنئة من البلاد وعلى رأس كل وفد خطيب .

واسترعى نظر الوالى أن غلاماً صغيراً ترأس وفد قومه ووقف بين يديه خطيباً يقدم له التهنئة بالولاية ، فقال له :

أليس هناك من هو أكبر منك ؟

فأجاب الغلام الغِرّ :

لو كان الأمر بالسن لكان هناك من هو أولى بالخلافة منك ياأمير المؤمنين .

وللشافعى بيتان يدوران حول هذا المعنى :

١ ــ أَرَى الغِرَّ فى الدنيا إذا كانَ فاضلاً
تَرَقَّى على رُءُوسِ الرِّجالِ ويَخْطُبُ
٢ ــ وإن كان ــ مثْلى ــ لا فَضِيلةَ عنده
يُقَاسُ بطفلٍ فى الشوارِعِ يَلْعَبُ

وأراك تقول :

إن التحلّى بالأخلاق الفاضلة يجعل الصغير (الغِرّ) كبيراً .

والتخلّى عن الفضائل يجعل الكبير صغيراً !

دعوة إلى التنقل والارتحال

لقد أتاح للشافعى جسدُه النحيل القدرة على السفر والرحلة ، واحتمال مشقة الانتقال بين العراق ومكة واليمن ومصر .

رحلت به أمه من غزة إلى مكة ، ورحل إلى المدينة ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم حمل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة .. وقصد إلى بغداد .. ثم إلى مصر حيث أقام فيها بقية حياته ، وقد أتاحت له هذه الرحلة ، وهذا التنقل المتصل خلال هذه المنطقة التى كانت تعد فى ذلك الوقت قلب العالم الإسلامى ، فرصة واسعة لدراسة طبائع الناس ، وأخلاقهم ، ومعرفة مصالحهم واتجاهاتهم ، وفهم الحياة ومشاكلها وقضاياها ، فالرحلات مدرسة يتعلم الإنسان منها بالتجربة والمشاهدة أكثر مما يتعلم بالدرس والمطالعة .

ترى لو حدثنا الشافعى عن التنقل والارتحال فماذا يقول ؟!

١ ــ ما فى المُقامِ لِذى عَقْلٍ وذى أَدَبٍ
مِنْ رَاحَةٍ فَدَعِ الأوْطانَ واغْترِبِ

٢ ــ سَافِرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّن تُفَارِقُه
وانْصَبْ فإن لذيذَ العَيْشِ فى النَّصَبِ

٣ ـــ إنـى رَأَيْتُ وُقُـوفَ الماءِ يُفْسِـدُه
إنْ سَاحَ طابَ وإن لّـمِ يَجْرِ لم يَطِبِ
٤ ـــ والأُسْدُ لَوْلَا فِراقُ الغابِ ما افترسَتْ
والسَّهْمُ لَوْلَا فِراقُ الْقَوسِ لَمْ يُصِبِ
٥ ـــ والشّمْسُ لو وقَفتْ فى الفُلْك دائمةً
لَمَلَّها النّاسُ مِنْ عُجْمٍ ومِنْ عَرَبِ
٦ ـــ والتِّبْرُ كالـتُّرْبِ مُلْقًـى فـى أماكِـنِه
والعُـودُ فى أرضِـه نَـوْعٌ مـن الْحَطَبِ
٧ ـــ فـإن تـغـرّبَ هـذا عَـزَّ مَطْلَبُـه
وإن تَـغَــرّب ذاك عَــزَّ كالـذّهَـبِ

[جواهر الأدب ، وأدب الفقهاء]

وقفة مع النص :

هذه أبيات سبعة تدعو إلى فضيلة من الفضائل وهى التنقل والسفر فى طلب الرزق والعلم ، وكم يكون جميلاً أن تضعها شركات السياحة فى صدر مطبوعاتها ومنشوراتها وأماكن تجمعات روادها ! إنها تدور حول ما فى التنقل والسفر من فوائد وتضرِب الأمثلة على ذلك من الحياة والواقع .

١ ـــ الإقامة الدائمة والمقام فى مكان لا يتحول عنه أمر لا راحة فيه لمن لديه عقل وأدب .. فجدير بذوى العقول والآداب أن يدَعوا الأوطان ويتغربوا فى أرض الله الواسعة !

٢ ـــ وسوف يجد الإنسان عِوَضاً وبديلاً عمن يفارقه .. سيلقى أهلا بأهل ، وإخواناً بإخوان . وسيشعر بسعادة غامرة فى تنقله ونَصَبه وتَعبه ، فما أجمل الراحة

بعد التعب ، وإن لذيذ العيش فى النّصَب . وهكذا علّمنا الدين ﴿ **فإذا فرغت فانصب** ﴾ .

٣ ـــ إن نظرة واحدة إلى ما حولنا تعطينا الدليل على صحة ما نقول : انظر إلى الماء . إن أقام فى مكانه .. فسد وتغيرت رائحته وأنتن . وإن ساح وسرى وجرى طاب ولَذّ طعمه . أليس وقوفه يفسده ؟!

٤ ـــ وانظر إلى الأُسْدُ (جمع) إن وقفت فى عرينها جاعت وماتت . ولكنها إن فارقت الغاب وجدت فريستها فتحيا ولولا فراق الغاب ما افترست وماعاشت !

والسهم لولا انطلاقه ما أصاب !

٥ ـــ وكذلك الشمس لو ظلت فى مكانها لكرهها الناس جميعاً من كل ملة ودين سواء فى ذلك العرب وغيرهم .

٦ ـــ والذهب قبل أن يُستخرج يظل مُلْقى فى أماكنه كالتُّراب . ويسمونه حينئذ : « تِبْراً » .

وأعواد الطِّيب ذات الرائحة الجميلة طالما ظلت فى أرضها فهى لا تزيد عن كونها نوعاً من الحطب .

٧ ـــ وعندما تُنْقَل أعوادُ الطّيب (البَخُور) من أرضها تصبح غالية القيمة ويَجِدّ الناس فى طلبها ويبحثون عنها ويعز مطلبها .

وكذلك إذا استخرج التّبْر من التراب يُصْبح عزيزاً غالى القيمة . إنه يصبح ذهباً بعد أن كان فى الأرض تبراً مختلطاً بالتراب .. وهكذا كل ما ينتقل تغلو قيمته ، ويعلو شأنه كالذهب .

الضّرْب فى الأرض

١ ـــ سأضرِب فى طُولِ البلادِ وعرضها
أنـال مُـرَادِى أو أمـوتُ غـريبًـا

٢ ــ فإن تلفت نفسى فلِلّه دَرُّها
وإن سلمت كان الرجوع قريبا

وأراك تقرأ هذين البيتين وتقول :

١ ــ إن الشاعر يقرر أنه قد عزم على الضرب فى الأرض والسعى على الرزق وطلب العلم والانتشار فى الأرض تلبية لما يقضى به الدِّين : ﴿ **فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ . فالدين لا يعرف الكسل والخمول والبطالة والتوقف .

إن الضرب فى الأرض يجعله بين أمرين :

إما أن يحقق مراده ، أو يموت غريباً !

٢ ــ فإن مات فما أعظمه من مكافح ، ولله دَرّه ! لقد سعى ومات فى سبيل تحقيق غرض نبيل .

وإن سَلِم عاد إلى وطنه محقق الآمال ، وما أقرب الرجوع إليه وما أحلاه !

هيبة الرجال وتوقيرهم

معاملة الناس فن له قواعد وأصول ..

وكل فعل له رد فعل من جنسه .

فمن هاب الرجال تهيبوه .

ومن أهانهم أهانوه .

ومن غربلَ الناس نخلوه . وما قَضوا له حقًّا !

ومن يعصِ الرجال كان غير مصيب .

حول هذه المعانى يحدثنا الإمام الشافعى فيقول :

١ ـــ وَمَـنْ هـابَ الرّجَـالَ تَهَيَّبوه
ومـنِ حَقِـرَ الرجـالَ فَلَـنْ يُهَابـا
٢ ـــ وما قَضَتِ الرجالُ له حقوقاً
ومـن يَعْـصِ الرجالَ فمـا أصـابَا

[حلية الأولياء]

لقد جرت مناظرة بين الشافعى رضى الله عنه وبين محمد بن الحسن وبشر المرّيسى فقال الشافعى وقد جئ به مقيداً إلى مجلس هارون الرشيد يرد على بشر هذين البيتين .

وأراك تقول :

متى تعود لرجالنا هيبتهم ؟

وأقول :

عندما يعامل كل منهم قومه بلين ورفق ..

وعندما يتواضع لهم ..

وعندما يلقاهم بوجه طلق وصدر منشرح ..

وعندما يشركهم فى ماله وفى نعمته ..

إنه إن فعل ذلك اعترفوا له بالسيادة عليهم .

كـذب المنجمـون

فى عهده ـــ رضى الله عنه ـــ كان هناك من يشتغلون بالتنجيم والإخبار بالمغيبات عن طريق النظر فى الكواكب .

ولكن لا يعلم الغيب إلا الله فما ينبغى لمؤمن أن يصدق منجماً فقد قالوا :

« كذب المنجمون ولو صدقوا » .

من أجل هذا نرى الإمام الشافعى يحمل صاحبيه رسالة إلى المنجّم تتضمن أنه كافر وغير مصدق بما يردده المنجّم على لسان الكواكب من إخبار بالمغيبات !

إن الإمام يعلم حقّا وصدقا أن لهذا الكون مُهَيْمنا ومسيطراً عليه يعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ! فأنّى للمنجّم ذلك ؟!

١ ـــ خبِّرا عَنّى المَنجِّـمَ أنِّـى　　كافِرٌ بالّـذِى قضتـه الكواكِـبُ

٢ ـــ عالماً أنّ مايكونُ وماكَانَ　　قَضَـاءٌ مـن المُهَيْمِـنُ واجِـبُ

معاملـة اللئيـم

رأى الناس فى مصر عالماً من قريش يجلس فى جامعتهم للتعليم ، يصلى فلا يرون أحسن صلاة من صلاته ، ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثاً من حديثه .

وكان لابد أن يغضب « المالكيون » خوفاً على مكانتهم الروحية كما كانوا من قبل !

وأسرف « فتيان بن أبى السمح » الفقيه المالكى فى اللدد والخصومة فى مناظرته ، ووجه إلى ابن إدريس كلاماً لا يصح أن يقال ، فعلم أمير مصر بالأمر ، فعاقب ابن أبى السمح عقاباً شديداً زاجراً . ولكن تلاميذ « فتيان » أخذوا يطاردون كل من يذهب إلى حلقة الشافعى .. لقد تعرض الشافعى للكثير ، وفى بيتين يكشف لنا عن موقفه ممن كانوا يتطاولون عليه :

١ ـــ قُلْ بما شِئْتَ فى مَسَبّةِ عِرضى

فسُكُوتى عنَ اللئيمِ جَواب !

٢ ــ ما أنا عادمُ الجوابِ ولكن
ما ضَرّ الأسْدَ أنْ تَجيبَ الكِلابُ

وأراك تقول :

لا جدوى من إجابة اللئيم ، وخير للشرفاء أن يوفروا وقتهم وجهدهم فلا وقت للضياع ، وسوف تظل قافلة العلم فى مسيرتها لا يضرها نباح الكلاب .

قافية التاء ت

دفـع الشـــــر

كان الشافعى ــ رضى الله عنه ــ « رياضياً » تعلم الرماية وأغرم بها وأجادها .

وقد نقل أسلوب الرياضيين من ميدان الرمى ، إلى حلبة الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه .

وفى مقطوعة من أربعة أبيات يحدثنا عن الراحة النفسية العميقة التى يجدها فى معاملة أعدائه .

تُرى كيف كان يعاملهم ؟

١ ــ لَمَّا عَفَوْتُ ولم أحْقِدْ على أَحدٍ
أَرَحْتُ نَفْسى من هَـمِّ العَدَاواتِ

٢ ــ إنـى أُحَيّى عَدُوِّى عِنْدَ رُؤْيته
لأدْفَعَ الشَرّ عنى بالتَّحِـيّاتِ

٣ ــ وأُظْهِرُ البِشرَ للإنسان أُبْغِضُه
كما إن قـد حَشَـا قلبى مَحبّاتِ

النَّاسُ داءٌ وداءُ النَّاسِ قُرْبُهُمُ
وفي اعتزالِهِمُ قَطْعُ المَوَدَّاتِ

[أدب الدنيا والدين]

وأراك تقول :

أمر الناس محيّر !!

قُرْبهم داء !

واعتزالهم عِدَاء !

فكيف يكون اللقاء ؟

أقول :

اقرأ أربعة الأبيات تجد ما يريح نفسك من هم العداوات !

هكذا الكرماء !

كان الشافعي ــ رضي الله عنه ــ أسخى الناس بما يجد وقلّما يمسك الشئ من سماحته !

ويقول الربيع : كان الشافعي إذا سأله إنسان شيئاً يحمارّ وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه .

إنه يرى في الاعتذار لمن جاء يسأله إحدى المصيبات ! ولكم يتمنى أن يكون تحت يده من المال ما يمنحه أولئك الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

ولقد صدق فيه قول القائل :

لو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله !

إنه يحدثنا عن تجربة يعيشها مع أهل المروءة متحسراً على ما فات .. فتعال إليه :

١ ـــ يا لهفَ نفسِى على مالٍ أفرّقُه
على المقِلّين من أهْلِ المرُوءَاتِ
٢ ـــ إن اعتذارى إلى من جاء يَسْأَلُنى
ما لَيْسَ عِنْدى لَمِنْ إحدى المصيباتِ

[بهجة المجالس وأنس المجالس]

آداب التعلم

تتلمذ الشافعى على يد الإمام مالك ولازمه حتى مات .

ومن قبل خرج عن مكة فلزم هذيلاً فى البادية يتعلم كلامها ، ويأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، وبقى فيهم سبع عشرة سنة يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم .

وذات يوم مر به رجل من الزبيريين من بنى عمه فقال له : يا أبا عبد الله ، عزّ علىّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سُدْت أهل زمانك ، فقلت : فمن بقى نقصد ؟ فقال لى : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ .

فذهب إليه وتلقى العلم على يديه ، وهنا يحدثنا عن آداب التعلم وبناء الذات ، ولا ينبئك مثل خبير :

١ ـــ اصْبِرِ على مُرّ الجَفَا مِن مُعَلّم
فإن رُسُوبَ العِلْم فى نَفَراتِه
٢ ـــ ومن لم يَذُقْ مُرّ التّعَلُّمِ ساعَةً
تجرّعَ ذُلّ الجَهْلِ طولَ حَيَاتِه
٣ ـــ ومن فَاتَه التّعْلِيمُ وَقْتَ شبابِهِ
فكَبِّرْ عَلَيْه أربَعاً لوفاتِه

٤ ــ وذاتُ الفتىِ ــ والله ــ بالعِلْم والتُّقَى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

الصديق المثالى

ما أكثر الإخوان حين نعدهم !

ولكنهم فى النائبات قليل !

نعم أهل الثقة قليلون .. بل هم : ... نادرون ..

ولكم يتمنى الشافعى أن يجد الصديق الوفى . وهو على أتم الاستعداد ليقاسمه ماله من الحسنات !

ولكن ماذا يحب الشافعى فى الصديق ؟!

وأى الصفات ينبغى أن تتوافر فيه ؟!

١ ــ أُحِبّ من الإخوان كُلّ مُواتِي
وكُلَّ غضيض الطَّرْف عن عَثَراتِي

٢ ــ يوافقنى فى كلِّ أمرٍ أريده
ويَحْفظُنِى حيًّا وبعد مَماتِى

٣ ــ فمَن لى بهذا؟ لَيْتَ أنِّى أصبْتُه
لقاسَمْتُه مَالِى من الحسنات

٤ ــ تصفحتُ إخوانى فكان أقلّهُمْ
ــ على كثرة الإخوان ــ أهلُ ثقاتى

[أدب الدنيا والدين ، وأدب الفقهاء]

وأراك تقول :

نعم .. الصديق الحق من تتفق أخلاقه مع أخلاقى ، ويغض الطرف عن عثراتى ، ويحفظنى حيًّا وميتاً .

ولكنى لا أتطلب منه أن يوافقنى فى كل أمر أريده ، فربما كنت مخطئاً وعليه أن يردنى إلى الصواب !

أَشِـحَّـة على الخير

هناك صِنْف من الناس كانوا صامتين لا يسمع لهم صوت فلما ملكوا الدراهم نطقوا ، وصدق القائل : « فهى اللسان لمن أراد فصاحةً » .

تُرى هل أصبح لهذا الصِّنف دور فى مجتمعهم فعطفوا على من يستحقون الفضل ، وأسهموا فى عمل الخير ، وخير العمل ؟!

حدثنا عبد الله الأصفهانى ، حدثنا أبو نصر قال : سمعت أبا عبد الله ابن أخى وهب يقول :

سمعت الشافعىّ يقول :

وأنْطَقَـتِ الدارهـمُ بعـد صَمْتٍ أُنـاسـاً بعـدما كانـوا سُـكوتـاً

فمـا عطفـوا علـى أحـدٍ بفضـلٍ ولا عـرفـوا لمكـرُمَـةٍ ثُبُـوتـا

[حلية الأولياء]

وأراك تقول :

لقد جاء فى الأثر : « **بُعِثتُ لِأُتمِّمَ مكارم الأخلاق** » ، والمكارم جمع مَكْرُمَة ، والمَكْرُمة فعل الخير .. فهل يستحق أولئك ما أنعم الله عليهم به من دراهم ؟ وما قيمة المال إذا لم ينتفع به صاحبه وينفع الناس ؟ فهل هؤلاء الأشحّاء مسلمون حقًّا ؟

مَحَطّ الرَّجاء

من أولئك الذين نعلق عليهم الآمال ؟

لاشك أنهم الكرماء ؛ فهم الذين يقصدهم طلاب الخير ، ويروم الناس المكارم عندهم !

وأكرمهم عند الشافعى من بنى لله بيتاً ..

وهو فى نظر الشافعى كالأسد يحمى المال والعرض والتراث والأرض ، ولقد كانت بيوت الله معاهد للعلم وطلابه وعلمائه ، توقف عليها الأموال ، وتجرى على طلابها الأرزاق ، فثوابها دائم ، وأجرها لا ينقطع فى الحياة وبعد الممات .

يقول الإمام الشافعى :

إذا رُمْتَ المكارمَ من كَريمٍ ... فيَمّم مَن بَنَى لِلّه بيتاً
فذاك الليثُ من يَحْمِى حِمَاهُ ... ويُكْرِمُ ضيفَه حيًّا ومَيْتا

ويقول أهل اللغة :

رام الشئ : قصده وطلبه .   يمّم : اقصد واتجه .

المكارم : الجوانب الخيّرة المحمودة جمع مَكْرُمة .

الليث : الأسد .

الحمى : ما يجب على الإنسان حمايته من مال وعرض وأرض .

الصفح الجميل

الصّفح أبلغ من العفو ، وأعلى منه درجة ؛ فقد يعفو الإنسان ، ولا يصفح ، وإذا

وُصف بالجمال فى القرآن ــ الصفح الجميل ــ صار أبلغ عفواً .

وفى مجال التجاوز عن الذنب ، والإعراض عن الجاهلين نجد إمامنا الشافعى يعطينا المثل فيقول :

١ ــ من نال مِنّى ، أو علقت بِذِمّتِهْ
أبْـرَأتُــه لِلَّـهِ شــاكـرَ مِنَّتِـهْ
٢ ــ أأُرى مُعَوِّقَ مؤمنٍ يومَ الجزَاء
أو أن أسُــوءَ محمـداً فـى أمتــه ؟!

[شذرات الذهب]

اللغـــــة :

نال مِنى : سبّنى ووقع فى عِرضى ــ أبرأته : سامحته وصفحت عنه .

المِنّة : الإحسان والنعم وجمعها مِنَن ــ مُعَوِّق : مانع وعائق .

وقفة مع النص :

لقد وضّح الشافعى موقفه ممن ينالون منه ، أو يعلق بذمتهم أمر من أموره .. إنه يصفح عنهم ، ويبرىء ذمتهم مما له عندهم راضى النفس شاكراً لله الذى أتاح له ذلك .

ويعود فيكشف لنا عن دوافع ذلك الصفح والإبراء .. إنه إذا لم يصفح عنه حال ذلك دون دخوله الجنة وهو واحد من أمة محمد ﷺ وذلك يسوء النبى ﷺ الذى يرجو لأمته أن تكون جميعاً فى الجنة .

إن الشافعى يتساءل فى إنكار ونفى :

أأُرى مُعَوِّق مؤمن يوم الجزاء ؟!

إن هذا مما لا أرضاه لنفسى !!

أأسوء محمداً فى أمته ؟!

وهذا ما لا أرضاه لنفسى ، ولا لغيرى ! ومن أجل هذا أعلنت فى الناس مسلكى وموقفى ووجهة نظرى !

فيالقلبه الكبير الذى اتسع للكثير !

متى يكون السكوت من ذهب ؟!

الناس صِنْفان : عقلاء ، وسفهاء ..

والحياة تحلو مع العقلاء ، يسودها المنطق ، وترفرف عليها سعادة حسن اللقاء .

أما السفهاء فإن الطيش يتملكهم ، والجهل يسيطر عليهم ، ويود أحدهم لو يستدرجك لينال منك !

فحذار أن تعطيه الفرصة ، وأغلق فى وجهه باب التفاهم ؛ فإنك إن كلمته أعطيته الفرصة للنيل منك وفرجت عنه ، وعندئذ لا تلومنّ إلا نفسك !

دع الكمد والغيظ يحرقان قلبه فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله !

وليكن شعارك مع السفهاء : ﴿ **قُلْ مُوتُوا بغَيظكم** ﴾ .

وهاهى ذى تجربة الإمام الشافعى صاغها فى بيتين :

١ ــ إذا نَطَق السفيه فلا تُجِبْه ... فَخَيْر من إجابته السُّكُوتُ

٢ ــ فإن كَلَّمته فَرّجْت عنه ... وإن خَلَّيتَه كَمَدًا يَمُوتُ

قُضَاةُ الدهر !

فى الحديث الشريف الذى أخرجه البيهقى من حديث بُرَيْدة :

القضاة ثلاثة :

« قاض قضى بغير الحق وهو يعلم فذاك فى النار . وقاض قضى وهو لا يعلم ، فأهلك حقوق الناس ، فذاك فى النار .

وقاض قضى بالحق ، فذاك فى الجنة » .

فالقضاء مهمة صعبة ، وياويل من يضل !

إنه يبيع دينه بدنياه ، فما ربحت تجارته !

والشافعى يحدثنا عن أولئك الضالين فيقول :

١ ـ قُضَاةُ الدّهْرِ قَدْ ضَلُّوا   فَقَدْ بَانَتْ خَسَارَتُهُمْ

٢ ـ فَبَاعوا الدِّينَ بالدُّنْيَا   فما رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ

قافية الجيم   ج

المخْرَج من النوازل !!

ما أكثر الشدائد التى تنزل بنا ، والمصائب التى تحل علينا والعقبات والعوائق التى تعترض طريقنا ، والمعضلات والصعاب التى تواجهنا ، ونحار فى حلها واجتيازها !

وتعمى أبصارنا ، وتضيق الدنيا فى أعيننا ، ونذوب أسىً وحسرة وكمداً ، ويدب اليأس إلى نفوسنا !! دون أن نتجه إلى الله فهو وحده مُفَرّج الكروب ، فما اشتدت أزمة إلا وكان المخرج منها عنده !!

والإمام الشافعى يذكر تجربته فى هذا المجال :

١ ـ ولَرُبّ نازلةٍ يَضِيقُ بها الفتى
ذَرْعاً وعِنْدَ اللهِ مِنْها المخْرَجُ
٢ ـ ضاقَتْ فلما استحكمت حَلْقَاتُها
فُرِجَتْ وكُنْتُ أظُنُّها لا تُفْرَجُ

اللغة :

النازلة : المصيبة الشديدة .

الذّرْع : الطاقة والوُسْع . وضاق بها ذرعا : لم يقدر على تحملها .

استحكمت حَلْقاتُها : قويت كحلْقات الدرع ، والحلْقات جمع حلْقة بسكون اللام . والمراد أنها نازلة شديدة .

عداوة الشُّعراء !!

وهذه أبيات ثمانية ذكرها ابن خلكان فى ترجمته للشافعى فى كتابه « وفيات الأعيان » وقال : « ومن المنسوب إليه » .

ولكن محمد فريد وجدى صاحب دائرة معارف القرن العشرين أوردها قائلاً : « ومن شعره » .

ومع هذا فإن السمعانى أنشدها فى « المذيل » لشاعر ورد على الصاحب بن عباد فلم ير منه برّاً ، فكتبها إليه فجاءه ، واعتذر إليه وبرّه .

إن ما ذكره السمعانى يلائم ماتضمنته الأبيات الثمانية ، فلعل الشافعى كان يرددها !

أليس هو القائل :

ولولا الشعر بالعلماءِ يُزْرِى ... لكنت اليوم أشعر من لبيد !

وإليك الأبيات التى قال ابن خلكان أنها نسبت إليه .

ماذا أقول ؟

١ ــ ماذا يُخبّرُ ضيفُ بيتِك أهْلَه
إنْ سِيلَ كيف مَعادُه ومَعَاجُه

٢ ــ أيقول : جاوزت الفُرات ولم أنَلْ
رِيًّا لدَيْه وقَدْ طَغَتْ أمواجُه

٣ ــ ورقيتُ فى دَرَجِ العُلَا فتضايَقَت
عَمّا أريد شِعَابُه وفِجَاجُه

٤ ــ ولَتُخْبِرَنْ خصاصَتِى بتَمَلُّقِى
والماءُ يُخْبِرُ عن قذاه زُجَاجُه

حال الشاعر :

عِنْدى يَوَاقِيتُ القَرِيضِ وَدُرُّه — وعَلَىَّ إكْلِيلُ الْكَلامِ وتَاجُهُ
تَرْبَى عَلَى رَوْضِ الرُّبَا أزهارُه — ويَرِفُّ فى نادِى النّدَى دِيَاجُه
والشّاعِرُ المِنطيق أسود سَالِخٌ — والشّعْر منه لُعَابُه ومُجَاجُه
وعداوة الشّعراءِ داءٌ مُعْضِل — ولقد يَهونُ على الكريمِ عِلَاجُه

وقفة مع النص :

١ ــ تبدأ الأبيات بتساؤل حول عودة الشاعر من زيارة ذلك الكريم دون أن يرى منه برًّا ونوالاً وعطاء .

إنه يقول له : ماذا يقول العائد من ضيافتك إلى أهله صفر اليدين إن سألوه كيف كان ذاك اللقاء ؟

٢ ــ أيقول بلغت النهر الزاخر وعدت وأنا عطشان .

٣ — أم يقول : ارتقيت إلى صاحب المعالى فضاقت الدنيا فى عينى ، وسُدّت السُّبل ؟!

٤ — ثم يعود فيقول :

إن حاجتى وسوء حالى لخير دليل على فقرى واحتياجى يبدو ذلك واضحاً كما يبدو قذى الماء وشوائبه من وراء آنيته الزجاجية .

٥ — ثم يعزى نفسه بما عنده مهدداً ذاك الكريم بما يجلبه على نفسه من عداوة الشعراء وعدم وصلهم ! فيقول :

٦ — عندى جواهر ودرر .. وعلىّ إكليل الكلام وتاجه .. مما يزيد جمالاً عن روض الرُّبا وأزهاره ، ورقة ديباجه .

٧ — وإلى جانب هذا فالشاعر المقتدر ثعبان أسود شرس ينفث سُمًّا . وعلى ذلك ..

٨ — فعداوة الشعراء داء معضل يصعب شفاؤه .. على غير الكريم ، فإن ذلك مما يهوى عليه .

اللغويات :

سِيل : سؤل . ونقول : سَلْ عما بدا لك .

معاده : عوده ورجوعه .

معاجه : المكان الذى يُعاج إليه ويُقام به . وعاج : رجع .

رِيًّا : لم أرتَوِ من عَطَشى .   رقيت : صعدت .

الشّعاب : جمع شِعْب : الطريق الضيق . والفِجاج : جمع فج : الطريق الواسع .

الخصاصة : الجوع ، والتملق : الفقر ، والقذى : الشوائب والأوساخ .

القريض : الشعر ، اليواقيت : أحجار كريمة ، والإكليل : عصابة توضع على الرأس مزينة بالأحجار .

تربى : تزيد . والرُّبا : الأماكن العالية حيث يكون زرعها وزهرها أكثر جمالاً

وتألقاً .

المنطيق : الفصيح البليغ . السالخ : الذى خرج من جلده وهو شرس .

المجاج : ما يخرج من الفم . والمعضل : ما يصعب شفاؤه .

قافية الحاء ح

عندما يكون السكوت من ذهب

يبدو أن الفقهاء كانوا يتعرضون لكثير من الجدل والخصام من مخالفيهم فى الرأى .

وفى التمادى فى الجدال والخصام فتح لأبواب الشر .. وقد تعرض إمامنا لألوان من الجدال والخصام ! . مع أن مبادئنا الإسلامية تقول لنا :

بارك الله فيمن كان مِفْتاحًا للخير مُغْلاقًا للشر !

ويكشف الإمام الشافعى عن موقفه من مخاصميه فيقول :

١ ــ قالوا سَكَتَّ ــ وقد خُوصمت ــ؟ قلت لهم :
إنَّ الجـوابَ لبـابِ الشَّـرِّ مِفتـاحُ

٢ ــ والصمـت عـن جاهـلٍ أو أحمـقٍ شـرفٌ
وفيـه أيضـاً لصَـوْنِ العِـرضِ إصْـلاحُ

٣ ــ أَمَا تَرَى الأُسْدَ تُخْشَى وهى صـامتة ؟!
والْكَلْبَ يُخْسَى ــ لعمرى ــ وهو نَبّاحُ

وقفة مع النص :

اللغــــة :

أحمق : قلّ عقله وساء فعله ، ولا تنون إلا فى الشعر .

يخسى : يزجر ويرمى بالحجارة ويطرد ويقال له : اخسأ .

لعَمْرى : قسم .

إنه ــ رضى الله عنه ــ يرد على من يعيبون عليه سكوته وعدم رده على الأحمق فيقول :

إننى حين أجيبه فقد فتحت باباً للشر ولا بارك الله فيمن كان مفتاحاً للشر .

هذا والصمت عن الجاهل والأحمق شرف ، وأى شرف ، وفيه صيانة للعِرض من تطاول الجاهل والأحمق .

إن الأسود صامتة فى عرينها ومع ذلك فلها هيبة وخشية .

أما الكلاب فما أكثر نباحها ومع ذلك فالناس يزجرونها ويطردونها ، ولهذا كان صمتى عنهم خيراً من الرد عليهم .

فإياك والتمادى فى مخاصمة الأحمق والجاهل !!

فراسـة الفقيـه !

هى فتوى روعى فيها حال السائل ، وأجيب عن سؤاله بما يلائم وضعه .

نجد السؤال فى بيت أنشده السائل ، ونجد الإجابة فى بيت مماثل للبيت الأول وزناً وقافية .

حدث الربيع بن سليمان قال :

كنا عند الشافعى إذ جاءه رجل برُقعة ، فنظر فيها وتبسم ، ثم كتب فيها ودفعها إليه .

قال : فقلنا :

يُسْأل الشافعى عن مسألة لا ننظر فيها وفى جوابها ؟! فلحقنا الرجل ، أخذنا الرقعة ، فقرأناها ، وإذا فيها :

سَلِ المفْتِى المكِّىَّ هل فى تزاورٍ وضَمّةِ مشتاق الفُؤادِ جُناح ؟!

قال : وإذا إجابة أسفل من ذلك :

أقولُ : مَعاذ الله أن يُذْهِبَ التُّقى تَلَاصُقُ أكبادٍ بِهِن جِراحُ !!

قال الربيع : فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحَدث بمثل هذا !!

فقلت : ياأبا عبد الله ، تُفْتِى بمثل هذا شابًّا ؟!

فقال لى : ياأبا محمد ، هذا رجل هاشمىّ قد عَرَّسَ هذا الشهر ــ يعنى شهر رمضان ــ وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يُقَبِّل أو يضُمّ من غير وطء؟!

فأفتيته بهذه الفُتْيا !!

قال الربيع : فتبعت الشابّ ، فسألته عن حاله ، فذكر لى أنه مثل ما قال الشافعى .

فما رأيت فِراسةً أحسن منها !!

[معجم الأدباء]

ويقول ابن القيم فى روضة المحبين ــ وأما ما ذكره السمعانى عن الشافعى ــ رحمه الله تعالى ــ فمن تحريف الناقل . والسائل لم يذكر لفظ الشافعى ، والبيتان هكذا هما :

سألت الفْتى المكىّ فى تزاورٍ ونظرة مشتاق الفُؤادِ جُناح ؟!
فقال : معاذ الله أن يُذهبَ التُّقَى تَلَاصُقُ أكبادٍ بِهِن جِراحُ !!

فهذا السائل هو الذى ذكر السؤال والجواب ، وهو مجهول لا يعرف هل هو ثقة أم لا ؟ .

ثم إنه نهى أن يُذهِب التقى تلاصُقُ الأكباد فكأنه قال : لا تتلاصق هذه الأكباد لئلا يذهب تلاصقها التقى .

ويمكن أن يكون غير مذهب للتقى فى عشق مباح بل مستحب كعشق الزوجة .

الفقيــهُ والصــوفىّ

الناس فى رأى الشافعى ثلاثة :

فقيه فقط ، وصوفى فقط ، وفقيه صوفىّ .

وهو ينصح للفقيه أن يكون صوفيّا ، وقد أبان عن وجهة نظره !

ترى لماذا ؟ تعالى نقرأ ما قال :

١ ــ فقيهاً وصوفِيًّا فكن ليس واحـداً
فـإنـي ــ وحَـقِّ الله ــ إياك أنْـصَـحُ
٢ ــ فذلـك قاسٍ لـم يَـذُق قَلْبُه تُقًـى
وهذا جَهُولٌ ، كيف ذو الجَهل يَصْلُح ؟!

قافية الدال   د

مِحنُ الزّمَان ومَسَراته

كـل مـن تلقـاه يشـكو دهـره   ليـت شِعرى هذه الدنيا لمن ؟!

والحق أن شدائد الزمان وأحداثه لا تكاد تنقضى ففى كل يوم تطالعنا أخبار الحروب والزلازل والعدوان على الآمنين الأبرياء ، إلى جانب المشكلات اليومية التى تطارد الشعوب وتلاحقهم فلا يشعرون بسعادة ولا تهنأ لهم حياة ، يئنون تحت وطأتها ، ويلهثون أمام مطاردتها لهم .

إن محن الزمان كثيرة لاتنقضى ، بينما السرور كالأعياد أيامه معدودة . لقد تحكم الزمان فى الأكابر فأذلهم بينما يمشى على هوى الساقطين الأدنياء وذاك حال الدنيا الدنية .

إنه يقول :

مِحَنُ الزّمانِ كثيرةٌ لا تَنْقَضِى ... وسُرورُه يأتيك كالأعيادِ

مَلكَ الأكَابِرَ فاستَرقَّ رِقَابهم ... وتَراهُ رقًّا فى يد الأوغادِ

ونعود فنتساءل :

١ ــ كيف يرى الشافعى الزمان فى محنه وسروره ؟

٢ ــ وما رأيك فيما يراه ؟

٣ ــ ما موقف الزمان من الأكابر والأصاغر ؟

٤ ــ وعلام يدل ذلك ؟

٥ ــ الوغد : الأحمق الدنىء الرَّذْل فما جمعه ؟ ابحث فى قاموسك تجد له ثلاثة جموع .

٦ ــ يقال رق رِقًّا صار رقيقا أو دخل فى الرِّق وأصبح عبدًا . فما المراد بقوله تراه رِقًّا فى يد الأوغاد ؟

قالوا ترفّضْتَ ..!!

الإمام الشافعى هاشمى النسب فلا عجب إذا أحب عليًّا وآل بيت النبى ﷺ

وتشيّع لهم .

ولقد وجد أعداؤه الفرصة سانحة ليرموه بالرفض .. ولكن شتان ما بينه وبين الرافضة !

فصحيح أن الرافضة فرقة من الشيعة لكنها : تجيز الطعن فى الصحابة، وسمّوا بذلك ؛ لأن أوّليهم رفضوا زيد بن على حين نهاهم عن الطعن فى الشيخين !! . والشافعى ليس كذلك ، فليس كل من تشيّع رافضياً !!

وفى أبيات ثلاثة يناقش الشافعى أولئك الذين تقولوا عليه ويرد عليهم :

١ ــ قالوا : تَرَفَّضْتَ قُلْتُ : كَلَّا
ما الرّفْضُ دِينى ولا اعْتِقَادِى
٢ ــ لكن تَوَلّيتُ غيرَ شَكٍّ
خَيْرَ إمامٍ وخَيْرَ هادِى
٣ ــ إن كان حُبُّ الولِىِّ رَفْضاً
فإنّ رَفْضِى إلى العبادِ

وقفة مع النص :

إن الترفض : اتخاذ مذهب الرافضة واعتناقه .

ونرى الشافعى يرد عن نفسه هذه التهمة قائلاً :

ما الرفض دينى ولا اعتقادى .

ويقال : توليت فلاناً : أحببته !!

ولا شئ فى هذا ففى الحديث الشريف :

« **من كنت مولاه فعلىٌ مولاه** » .

والمؤمن وليّ الله فهل حب الوليّ يُعد رفضا ؟!

إن كان حُبُّ الولى رفضاً .. فإن رفضى إلى العباد .

ولا عَلَيَّ إذا أعلنت حُبّى لِعَلِيٍّ !

النــاسُ والكــلاب

قديماً قال شاعرنا العربى :

عوى الذئب فاسْتَأْنَسْتُ بالذئب إذْ عَوَى
وصَــوّت إنســـانٌ فكِــدْتُ أطِــيرُ

وتمر القرون ويسوء حال الناس ، فيتمنى الشافعى أن تكون الكلاب له مجاورة فلا يرى من الناس أحداً !!

تُرى لماذا ؟

حدثنا محمد بن إبراهيم قال :

حدث شعيب بن محمد الدبيلى قال :

أنشدنا الشافعى :

١ ــ ليت الكـلابَ لنـا كانـت مجـاورةً
وأنّنَـا لا نَـرَى مّمـا نـرى أحـدَا

٢ ــ إن الكـلابَ لتَهـدَى فـى مواطنهـا
والخَلْـق ليـسَّ بهـادٍ ، شـرهـم أبـدَا

٣ ــ فاهرب بنفسِك واسْتَأنِس بوَحْدتِها
تبقـى سـعيداً إذا ما كُنْتَ منفـردَا

[حلية الأولياء]

وقفة مع النص :

نجد هذا النص فى حلية الأولياء ١٤٩/٩ وتختلف رواية الربيع فى كلمات ثلاث :

فى الشطر الثانى من البيت الأول : وأننا بدل وليتنا . وقد آثرنا هذه الرواية لعدم التكرار .

وفى الشطر الأول من البيت الثانى : مرابعها بدلاً من مواطنها .

وفى البيت الثالث فى الشطر الأول : فانج بدل فاهرب .

ونعود فنتساءل :

لماذا الكلاب ؟

ويجيب الشافعى :

إن الكلاب لتهدَى فى مواطنها . تكون هادئة وتكف شرها . ومن هنا قالوا : فلان جبان الكلب .

والخلق ليس بهادٍ .. شرهم أبدا . شرهم مستمر لا تهدأ لهم نار . وقديماً أخرج حاتم الطائى كلبه من داخل بيته إلى خارجه ليهدى ذاك الذى طلب النجدة ليسمع صوته ويرى ناره فيُقبل على مصدر الصوت والنار فيهتدى !

وأخرجت كلبى وهو فى البيت داخله .

لقد أخرج كلبه لينبح ؛ لعل هذا السارى يهتدى بنباحه !

وخير لمن كان ذا خُلق فى مثل هؤلاء الناس أن يهرب بنفسه وينجو من شرهم ليعيش سعيداً فى وحدته !

عدوّ يتمنى الموت للشافِعِىّ

معرفة المناسبة التى قيل فيها الشعر تساعد على فهمه .

وقد قال ابن عبد الحكم :

سمعت أشهب يدعو على الشافعى ، فذكر ذلك للشافعى فقال هذه الأبيات الثلاثة :

وأشهب فقيه مالكى مصرى وُلِد فى السنة التى وُلِد فيها الشافعى ، واشتهر بعدائه له ، ومات بعده بثمانية عشر يوماً .

١ ــ تمنى رجَالٌ أنْ أمُوتَ وإنْ أَمُتْ
فتلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فِيهَا بأوْحَدِ

٢ ــ وما موْتُ منْ قَدْ مات قَبْلِى بِضَائرِ
ولاَعَيْشُ مَنْ قَدْ عَاشَ بَعْدِى بِمُخْلِد

٣ ــ لَعَلَّ الَّذِى يَرْجُو فَنَائى وَيدَّعِى
بِهِ قَبْلَ مَوْتِى أنْ يَكُونَ هُو الرَّدِى

[حلية الأولياء]

وقفة مع النص :

حكى الشافعى أمنية أعدائه ، والموت سبيل كل حىّ ، فإذا تحققت أمنيتهم ، فليس هو وحده الذى يموت ، ولا شئ فى هذا .

وسيان : أن يموت أحدهم قبلى أو يعيش بعدى ، فلن يَضُرَّ من مات موتُه ، كما أن من عاش لن يمنحه عيشه الخلود والبقاء !

ثم يقول : ومن يدرى فلعل الذى يتمنى موتى وهلاكى وفنائى ويدعو علىّ بذلك أن يكون هو الذى يردى ويهلك قبلى ، فالحياة والموت بيد الله .

ونعود نتساءل :

بم رد الشافعى على من تمنى موته ؟

وهل ينبغى للمؤمن أن يتمنى موت أخيه ؟

الناسُ بين شامتٍ وحَاسِدِ

عند الشدائد تظهر الإخوان !

ويعرف العدو من الصديق ، وقد قال أحدهم :

جزى الله الشدائد كُلَّ خيرٍ عرفت بها عَدُوِّى مِن صَدِيقى !

ومن يمرون بشدائد يفتقدون الصديق الحق .. « أخا ثقةٍ » .

ولهذا نرى الشافعى يحدثنا عن تجربته فى مجال الصداقة فى رخاء وشدة ؛ فيقول :

١ ــ وَلَمَّا أَتَيْتُ أطْلُبُ عِنْدَهُمْ
أَخا ثِقَةٍ عِنْدَ ابْتِلَاءِ الشَّدَائِدِ

٢ ــ تَقَلَّبْتُ فى دَهْرِى رَخاءً وَشِدَّةً
وَنَادَيْتُ فى الْأَحْيَاءِ هَلْ مِنْ مُساعِدِ ؟

٣ ــ فَلَم أرَ فِيما سَاءَنى غَيْرَ شَامِتٍ
وَلَمْ أرَ فِيما سَرَّنى غَيْرَ حَاسِدِ

وقفة مع النص :

لقد جاء يبحث عن أخ فى الشدائد عندما تعرض للابتلاء والاختبار ، وتتابعت عليه المحن ، وراح ينادى : هل من مساعد ؟

مساعد يقف إلى جانبه ، يسليه ويعزيه ويواسيه ، ويحمل عنه ما ناء بحمله ، ويسانده حتى تمر التجربة بسلام ويخرج منها كالذهب الإبريز نقياً صافياً .

ولكن .. وآه مما بعد لكن !!

لكن تبين له ما يأتى :

لم ير فى أوقات الشدة غير شامت فرح بما ناله ، وسعيد بما أصابه !

ولم ير فى أوقات السرور غير حاسد يتمنى زوال نعمته ، ويود لو انقلب سروره حزناً وسعادته شقاء ، ورضاه غضبا ، وصحته ضعفاً ومرضاً ، وحياته موتاً .

وهكذا فى الرخاء والشدة لم يجد أخا ثقة يثق به ويشاركه ويشاطره ، ويفضى إليه بما فى نفسه !!

وأعود فأقول :

١ ـــ مارأيك فى ناس زماننا ؟ وهل هم أيضاً فى الشدائد والمسرات بين شامت وحاسد ؟

٢ ـــ وكيف ينصلح حالهم ، وتقوى رابطتهم ؟!

من صور غدر الأَخِـلّاء !!

الخُلّةُ : الصّداقَةُ الخالصة التى تتخلل القلب ، وجمعها : خِلال .

والخليل : الصّديق المخلص الذى تخللت صداقته القلب ، والحبيب الذى أصفى المودة وأصَحّها ، وجمعه : أَخِلّاء .

وفى أبيات أربعة يعرض علينا الإمام الشافعى صورة من صور غدر الأخلاء فى مجتمعه .

لقد صحب الشافعى ما لا عدد له من الناس ، وكان يحسب أنه قد ملأ يديه من صدقهم وإخلاصهم وصفاء صداقتهم ، لكنه لما ابتلاهم واختبرهم وجدهم نماذج للغدر لا يُبقون على أحد ، ولا يعرفون للصداقة حقها !

إن غاب فَشَرّ الناس يشتمه !

وإن مرض فخيرهم لا يعوده فى مرضه ولا يسأل عنه !

وإن رأوه بخير ساءهم ما هو فيه من فرح !

وإن رأوه بشر سرهم ماهو فيه من نكد وحزن !

أهؤلاء هم الأخلاء ؟

وهل الناس هم الناس فى كل عصر ؟

وهل هناك بارقة أمل فى صحبة ترعى حق الأخوة ؟

وأين الأخوة فى الله ؟! فما كان لله دام واتصل !!

تعال نعايش الشافعى فى أبياته :

١ ـــ إنى صَحْبتُ النّاسَ ما لهم عَدَدُ
وَكُنْتُ أحسَبُ أنّى قَدْ مَلأت يَدِى

٢ ـــ لما بَلَوْتُ أَخِلّائى وجَدْتُهم
كالدّهْرِ فى الغَدْرِ لم يُبْقُوا على أحَدِ

٣ ـــ إن غِبْتُ عَنْهم فَشَرّ الناسِ يَشْتُمُنى
وإن مَرِضْتُ فخيرُ النّاسِ لم يَعُدِ

٤ ـــ وإن رَأَوْنى بِخَيْرٍ ساءهم فَرَحِى
وإن رَأَوْنى بِشَرٍّ سَرَّهُم نَكَدِى !!

عجباً لمن يضحك والموت يطلبه !!

ذكر ابن رشيق القيروانى محمد بن إدريس قائلاً :

وأما محمد بن إدريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتنانًا فى الشعر وهو

القائل:

١ ـ ومُتْعِب العِيسِ مُرْتاحًا إلى بَلَد
والموتُ يَطْلُبُه فى ذلك البَلَدِ

٢ ـ وضاحكٍ والمنايا فوق مَفْرِقِه
لو كان يعلم غيباً مات مِنْ كَمَدِ

٣ ـ مَنْ كان لم يُؤْتَ عِلْمًا فى بقاءِ غدٍ
ماذا تَفَكُّرُه فى رزقِ بَعْدَ غد؟!

ولكن الديوان المجموع تضمن البيتين الأخيرين مع اختلاف يسير.

إنه يقول:

١ ـ كم ضَاحكٍ والمنايَا فوقَ هَامَتِه
لو كَانَ يَعْلَمُ غَيْباً مات مِنْ كَمَدِ

٢ ـ من كان لم يُؤْتَ عِلْماً فى بقاءِ غدٍ
ماذا تَفَكُّرُه فى رزق بعد غَدِ

[العمدة فى محاسن الشعر]

وقفة مع النص :

كثيراً ما كان الشافعى يفكر فى الموت ويعمل لما بعده ، ولهذا نراه يعجب من أمر أولئك الذين يتكالبون على الحياة الفانية وينسون الباقية . يعجب لمن يجهد العيس (الجِمال) ويتعبها وهو مرتاح للوصول إلى ما يبتغيه فى بلد يطلبه فيها الموت .. إنه يضحك والمنايا (الموت) فوق رأسه وهامته ومفرق شعره فأين منه المهرب ؟!

لو كان يعلم كل منا نهايته لمات حزناً وكمداً ، لكن لا يعلم الغيب إلا الله ، وجدير بمن لا يعرف ماذا يحدث فى الغد ؟ أيبقى أم ينتهى ؟ أن يكف عن التفكير فى رزق ما بعد غد !

لا تيأسَنْ من لطف ربك !!

يسوق الشافعى أربعة أبيات لمن يعانون ويئنون تحت وطأة ذنوبهم ويخافون يوم الفزع الأكبر .

إن عفو الله فى انتظارهم وكيف لا وقد أفاض عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة ؟!

لقد غمر الإنسان بعطفه منذ كان نطفة ضمتها أحشاء أمه وظلت العناية ترعاه حتى كان وليداً ! فهل يتخلى عنه ربه ويدعه يدخل النار ؟!

لو شاء ما ألهمه التوحيد منذ ولد !

فإلى الذين تجلدهم ذنوبهم وتؤرق عليهم حياتهم : لا تيأسوا من لطف الله !

١ ــ إنْ كُنْتَ تَغْدُو فى الذُّنوبِ جَلِيدَا
وَتَخَافُ فى يَوْمِ الْمَعَادِ وَعِيدَا

٢ ــ فَلَقَدْ أَتَاكَ مِنَ الْمُهَيْمِنِ عَفْوُهُ
وَأَفَاضَ مِنْ نِعَمٍ عَلَيْكَ مَزِيدَا

٣ ــ لاتَيْأَسَنْ مِنْ لُطْفِ رَبِّكَ فى الْحَشَا
فى بَطْنِ أُمِّكِ مُضْغَةً وَوَلِيدَا

٤ ــ لَوْ شَاءَ أَنْ تَصْلَى جَهَنَّمَ خَالِدًا
مَا كَانَ أَلْهَمَ قَلْبَكَ التَّوْحِيدَا

وقفة مع النص :

تذكر يا من أثقلتك الذنوب أن الله الذى تفضل عليك بادىء ذى بدء فألهم قلبك التوحيد لن يتخلى عنك ويذرك تصلى ناراً حامية .. فعد إليه نادماً مستغفراً فهو اللطيف بعباده .. هيا قل : إنى ذاهب ربى !!

هُمُـوم الغَــدِ !!

التسليم لله هو لُبّ الإيمان ، ومادمنا نعمل ونتوكل فلتكن إرادة الله ومشيئته !

ومن يكن قلبه عامراً بالإيمان فلن تطارده هموم الغد ، فإن غداً له رزق جديد . ومادام الله قد أنعم عليه بقوت يومه فلْيسعد ولْينعم وليرض ولْيُسلّم ، وليترك ما يريد إلى ما يريده الله ! فهو الرزاق ذو القوة المتين !

إن هذا لهو التفويض .. وهذا هو التسليم وهذه هى الثقة بالله ، مع حُسن الظن به وجميل التوكل عليه . ولن يجوع أو يعرى من أحسن الظن به !

١ ــ إذَا أَصْبَحْتُ عِنْدِى قُوتُ يَوْمى
فَخَـلِّ الْهَـمَّ عَــنِّى يَا سَــعِيدُ

٢ ــ وَلاتُخْطِـرْ هُمُـوم غَـد بِبَالـى
فَـإِنَّ غَــداً لَــهُ رِزْقٌ جَـدِيــدُ

٣ ــ أُسَـــلِّمُ إنْ أرَادَ الـلـه أمْــراً
فَأَتْـرُكُ مَا أُريـدُ لِمَا ما يُريـدُ

وقفة مع النص :

وفى عصرنا الذى تكاثرت فيه الهموم ، وفى كل يوم ترد أنباء عن قتلى الجفاف ، وهلاك البشرية بفعل الجوع .. نجد أننا فى أمسّ الحاجة إلى التسليم والأمل فى الله !

لَــوْلا ... ولَــوْلا

منح الله كلًّا منا قدرات وإمكانات يجب أن يستثمرها فيما يعود على بنى جنسه بالخير !

وفى بعض النفوس طموح وتطلع ، وحب استعلاء على الناس !

وكأنى بالإمام الشافعى يوجهنا فى رفق إلى ما ينبغى أن يمارسه المؤمن من قدرات ، وما ينبغى أن تكون عليه العلاقات ، وإذا كان القلب عامراً بالخشية من الله ، ففيها ترويض للنفس وكبح لجماح تطلعاتها ! إنه يقول :

١ ــ وَلَوْلَا الشِّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزرى
لَكُنْتُ الْيَومَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

٢ ــ وأَشْجعَ فى الْوَغَى مِنْ كلِّ لَيْثٍ
وَآل مُهَلَّب وبنى يَزِيدِ

٣ ــ وَلَوْلَا خَشْيَةُ الرَّحْمن رَبِّى
حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهمُ عبيدى

[وفيات الأعيان]

وقفة مع النص :

١ ــ يزرى : يعيب وينقص من قدرهم فهم يخوضون مع الخائضين .

ولبيد من شعراء الجاهلية ، تنسّك حين أسلم ولم يسمع له فى الإسلام غير بيت واحد هو :

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسه والمرء يُصلحه الجليس الصالح

٢ ــ الوغى : الحرب ، والليث : الأسد .

٣ ــ والعبيد : الأرقّاء والخدم .

الشعورُ بالرّاحة عند قضاء الحق

جاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى :

جاء رجل إلى الشافعي فقال له : أصلحك الله ! صديقك فلان عليل .

فقال الشافعى :

والله لقد أحسنتَ إليّ ، وأيقظتنِي لمكرمة ، ودفعت عنى اعتذاراً يشوبه الكذب !

ثم قال :

يا غلام ، هات السبتية (السبتية : نعال مدبوغة لينة) .

ثم قال : لَلْمَشْىُ على الحَفَاءِ : (بلا نعل) .

على عِلّة الوِجَاءِ : (العلة المؤلمة كأنها من الوجأ باليد أو السكين) .

فى حر الرّمضاء (الأرض الحارة من شدة الحر فى الصيف ووهج الشمس) .

من ذى طَوىً (جوع) .

أهونُ من اعتذارٍ ، إلى صديقٍ يَشُوبُه الكَذِبُ .

ثـم أنشـد :

أَرى راحــةً للحــقِّ عِنْدَ قَضــائِه	**ويثقُلُ يومـاً إنْ تَرَكْتَ على عَمْـدِ**
وحسبُكَ حظًّا أنْ تُرى غيرَ كَاذبٍ	**وقولُكَ لم أعْلَمْ وذاك من الجُهْدِ**
ومن يقضِ حقَّ الجارِ بعدَ ابنِ عَمِّه	**وصاحبِهِ الأدْنَى على القُرْبِ والبُعْدِ**
يعشْ سَيِّدا يستعذبُ الناسُ ذكرَهُ	**وإنْ نَابَـهُ حــقٌّ أَتَـوْهُ على قَصْـدِ**

[معجم الأدباء]

وقفة مع النص :

روى هذا النص خيثمة بن سُليمان بن حيدرة عن الشافعى رضى الله عنه ، وهو يدور حول « حقوق الناس والمسارعة إلى قضائها » وما أشد حاجتنا إلى التأسى بما قاله الإمام الشافعى فالكثيرون اليوم ـــ أمام مشاغل الحياة ـــ يهملون حق الصديق مكتفين بأعذار واهية يشوبها الكذب !

فبماذا يشعر الإمام الشافعى عند قضاء الحق ؟ إنه يقول :

أرى راحة للحق عند قضائه .

وماذا يحدث إن تُرِك أداء الحق عن عمد ؟

إنه يثقل على من ترك أداءه ، حتى تتراكم عليه الحقوق ، ويشعر بالتقصير والذنب !

ويكفى الإنسان فى دنياه أن يُرى غير كاذب وذلك بمسارعته إلى أداء الواجب عندما يعلم ؛ ففى الاعتذار بقوله : لا أعلم جهد ومشقة على النفوس .

وهل عَلِمَ أولئك الذين يقصرون فى أداء الواجب أن من يقض حق القرابة والصداقة والجيرة قربت أم بعدت يشعر بسعادة غامرة ويعيش سَيّداً يحلو للناس أن يذكروه بالخير .

وإن أصابه ــ لا قدر الله مكروهٍ ــ سارعوا لأداء واجبه عن طواعية .

إن باب المكارم مفتوح على مصراعيه يدخله فاعلو الخير فهلّا سارعت إلى مَكرُمَة ؟!

أفضل ما استفاد المرء

جاء فى حلية الأولياء لأبى نعيم قال :

حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا يوسف بن عبد الأحد ، قال :

قلت للمزنى : كان الشافعى يتروّح (أى يروّح عن نفسه) ببيتين من الشعر ماهما؟

فأنشـدنى :

يُـريـدُ الْمَـرْءُ أَنْ يُعْطَـى مُنَـاهُ وَيَـأْبَـى الـلَّـهُ إلَّا مَـا أَرَادَا

يَقُـولُ الْمَـرْءُ فَـائِـدَتـى وَمَـالـى وَتقْـوَى اللهِ أَفْضَـلُ مَـا اسْـتَفَادَا

[حلية الأولياء]

وقفة مع النص :

إن تقوى الله ركيزة من ركائز الإيمان ، وبدونها ينهار البنيان ، وتفسد حياة الإنسان .

وبالتقوى ينتظم أَمْر أخلاق الأمة وآدابها فتسلم من السقوط والفساد .

ألم يقل الله سبحانه : إنها ﴿ **خير الزاد** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

إن بيتى الشافعى يلتقيان مع قول القائل :

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكن التقىّ هو السعيد

فتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد

فوائد الأَسْفَار

بُحّ صَوْتُ القدَامى من كثرة ما دعَوْا إلى التغرّب والسفر فى طلب العلم والرزق .

ومضى وقت كان الرجل يبكى حين يعلم أنه قد وقع عليه الاختيار ليسافر إلى قُطر من الأقطار حتى جاء الوقت الذى آمن فيه الجميع بفائدة السفر رجالاً ونساء وشباباً وشيباً ..

ومع هذا فما تزال أبيات الإمام الشافعى تقرع آذان القابعين ، وتفتح الأعين على خمس فوائد للمسافرين .

١ ــ تَغَرّب عن الأوطانِ فى طَلَبِ العُلَا

وسافِر ففى الأسْفَارِ خَمْسُ فَوائِدِ :

٢ ــ تَفَرُّجُ هَـمٍّ ، واكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ

وعِلْمٌ ، وآدابٌ ، وصُحْبَةُ مَاجِدِ

[مرآة الجنان وعبرة اليقظان]

وقفة مع النص :

إن مَن يسافر يرى الجديد الممتع ، فتسعد نفسه ، ويزول همّه ، وقد رأينا كيف يعود المسافرون بما يتيح لهم حياة سعيدة ، ومنهم من حصل جوانب من العلم النافع والخبرة المثمرة ، إلى جانب ما يحصل عليه المسافر من آداب المعاملة واللقاء والمعاشرة ، ولا يخلو الأمر من اكتساب صداقات ذات فضل ومجد .

الأقربون أولى بالمعروف

جاء فى الانتقاء :

وفد محمد بن إدريس الشافعى على رجل من قومه باليمن كان بها أميراً ، فأقام عنده أياماً ، ثم سأله الرجوع إلى داره وموضعه ، فكتب إليه يعتذر ، وعرض عليه شيئاً يسيرا !!

فكتب الشافعى أبياتاً فى ظهر رقعته :

١ ــ أَتَانِى عُذْرٌ مِنْك فى غير كُنْهِهِ
كأنك عن بِرِّى بذاك تَحِيدُ !

٢ ــ لسائلك هَشٌّ بالنّوالِ وَما أَرَى
يَمِينَكَ إنْ جَادَ اللِّسَانُ تَجُودُ

٣ ــ فإن قُلْتَ لى بَيْتٌ وسِبْطٌ وسِبْطَةٌ
وأَسْلَافُ صِدْقٍ قد مَضَوْا وجُدُودُ

٤ ــ صَدَقْتَ ولَكِنْ أنْتَ خرَّبْتَ ما بَنَوْا
بكَفَّيْكَ عَمْداً والبِنَاءُ جَدِيدُ

٥ ــ إذا كَانَ ذو القُرْبَى لَدَيْك مُبَعّداً
ونَالَ الَّذِى يَهْوَى لديكَ بَعِيدُ

٦ ـــ تَفَرَّقَ عنك الأقربون لشأنهم
واشْـتَقْتَ أن تَبْقَـى وأَنْـتَ وَحِـيدُ
٧ ـــ وأصْبَحتَ بَيْنَ الحَمْدِ والذَّمِّ واقِفاً
فياليتَ شِعْرِى أىّ ذاك تريد ؟!

[الانتقـاء]

فكتب إليه :

بل أريد منك الحمد بأبى أنت وأمى !

وقد وجهت إليك خمسَمائة دينار لنفقتك ، وعَشْرَة أثوابٍ من حِبَر اليمن وبختيين .

والسـلام .

وقفة مع النص :

هذه الأبيات عتاب من الشافعى لقريبه اليمنى ذكّره فيها بأنه لا مجال للاعتذار عن مساعدته وبرّه ، وقد سمع منه جوداً وكرماً باللسان لا بالفعل ، ثم وضح له أنه خرّب مابنى أسلافه وجدوده بكفيه عمداً .

وشأن من يبعد الأقارب ، ويقرّب الأباعد أن ينظر يوماً حوله فيجد نفسه وحيداً بين الحمد والذم .. وراح يسائله : أيهما تريد؟!

وكان للعتاب أثره ، فأراد قريبه الحمد ووصله بعطاء كريم .

والحِبَرة ـــ كعنبة ـــ بُرْدٌ يمانٍ . والجمع حِبَر ـــ كعنب .

والبُخْتِىّ من الإبل جمعه بخَاتِىّ . ولك أن تخفف الياء فى الجمع ، والأنثى بختية .

عـــداوة الحـاســـد

جاء فى نور الأبصار للشبلنجى قوله :

قال الشافعى :

١ ـــ كل العداوةِ قد تُرجَى مَوَدَّتُها
إلا عَداوَةَ مَنْ عاداكَ مِنْ حَسَدِ !

وقفة مع البيت :

إن الحسود قد تمكن الحقد من قلبه ، وحمل كراهيةً لصاحب النعمة ، فهو يكره نعمة الله عليه ، ويتمنى زوالها ، وقد يسعى لإزالتها .

ومن أجل هذا طلب الله ـــ سبحانه ـــ من نبيه ﷺ أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد .

إن الحسود كما يقول النحويون :

« أيٌّ هكذا خلقت » !!

فلا أمل فى مودته !

وعلينا أن نستعيذ بالله من شره !

العلـــم الأُخـــروى

قال رضىَ الله عنه :

١ ـــ مَـن تَـعَـلَّــم لـلمَعــادِ	**فــاز بفَضْــلٍ مِــنَ الــرَّشــادِ**
٢ ـــ ونــالَ حُسْـناً لِطَالِبِيــه	**وفَـضْــلَ نَـيْــلٍ مِــنَ العبــادِ**

وقفة مع النص :

لا يخلو التعلم بالعلوم الأخروية من فوائد ، فمن تعلّم ما يعينه على أن يلقى الله

وهو حائز لرضاه فاز بفضل ونصيب من الهداية والرشاد .

ونال استحسان طلابه وأفادهم ، فأمده العباد الصالحون بنوالهم وعطائهم .

قافية الراء

جنـــان الخُلـــد

يا مَنْ يُعَانِقُ دُنْيَا لا بَقَاءَ لَهَا ... يُمْسِي وَيُصْبِحُ فى دُنْيَاهُ سَفَّارا

هلَّا تَرَكْتَ لِذِى الدُّنْيَا مُعانَقَةً ... حَتَّى تُعَانِقَ فى الفِرْدَوْسِ أبْكارَا

إنْ كُنْتَ تَبْغِى جِنَانَ الْخُلْدِ تَسْكُنُها

فَيَنْبَغِى لك ألّا تأْمَنَ النَّارَا

وقفة مع النص :

الذين يُقْبِلون على الدنيا ومافيها من ملاذّ وشهواتٍ ينْسَوْن أنهم على سفر .

أَمَا كان الأجدرُ بِهم أن يتخلَّوْا عن شهواتهم ، إن كانوا يبغون جِنان الخُلد حَقًّا ، لِيُعَانقوا ماوُعِدوا به من الحور العين من أبكار الفردوس ؟!

* إن كانوا جادين فى طلب جنان الخلد فينبغى لهم ألا يأمنوا النار !! وألا تُلهيهم الدنيا بمفاتنها عن الآخرة ونعيمها الدائم .

والسَّفّار : المرتحل ، والدنيا ليست دار إقامة ، وكلنا فيها على سفر .

الهمّـــة العاليـــة

أورد صاحب دائرة معارف القرن العشرين فى الجزء الخامس الأبيات الثلاثة الأولى من المقطوعة الآتية وتنسب للبارودى باعتباره قد نفى إلى سرنديب ولعل البارودى

كان يتمثل بها فقط .

وتقول أبيات المقطوعة الأربعة :

١ ـــ أمطِرى لُؤْلؤًا جِبَال سَرَنْديـ
ـــبَ وفيضِــى آبــار تكــرورَ تــبرَا
٢ ـــ أنا إن عِشْتُ لست أَعْدَمُ قوتاً
وإذا مِــتُّ لســـت أعْــدَم قَـــبْرَا
٣ ـــ هِمّــتى همــة الملوك ونفْسِــى
نَفْــسُ حُـــرٍّ تــرى المَذَلّــة كُفْـرَا
٤ ـــ وإذا ما قنعْتُ بالقوتِ عُمرى
فلمـــاذا أزورُ زيـــداً وعَمـــراً ؟

[دائرة معارف القرن العشرين]

مـع الأبيــات :

تدور الأبيات حول القناعة بالقوت الضرورى مما يكفل للنفس عزتها فتصبح غير محتاجة لزيارة فلان من الناس !

ومادام الأمر كذلك فسوف يجد القوت فى أى مكان والقبر حيث كان !

ولْتَجُدْ الجبالُ بكنوزها ، والأرضُ ببترولها وذهبها فذلك لن يغير من شأنه ، فسوف تظل همته عالية ، يحمل نفساً حرة ترى المذلة كفراً !

الوِحْدَةُ خيرٌ مِن جَليس السّوء

الناس رجلان : تقِىّ وغَوِىّ ..

والتقِى : الذى يلزم الطاعة ، ولا يقع فى المعصية ، فيتقى موارد السوء .

والغَىّ : فساد العيش ، أو فساد الاعتقاد ، أو الضلال والخيبة ، والذى انهمك فى الغَىّ : غَوِىّ .

فماذا يفعل الإنسان إذا لم يجد خليلاً أو صديقاً تقيًّا ؟

يجيب الشافعى فيقول :

١ – إذا لم أَجِدْ خِلّاً تَقِيًّا فوَحْدتى ... أَلَـذُّ وأَشْـهى من غَـوِىٍّ أُعَـاشِـرُه

٢ – وأَجْلِسُ وَحْدِى للعبادةِ آمِناً ... أَقَـرُّ لعينـى مـن جَليـس أحـاذِره

وقفة مع النص :

إن الوحدة خير من جليس السوء ؛ فهى ألذ وأشهى من معاشرة الغوىّ .

وفيها يتفرغ الإنسان لعبادة ربه آمناً مطمئناً قرير العين ، وكيف يطمئن بال الإنسان مع صديق لا أمان له يعيش معه حياة كلها حذر وخوف من مكره وشره وألاعيبه ؟!

وقد رأينا جناية الأصدقاء غير الأتقياء على الأبناء والآباء !!

إحسان الظّنِّ بالأيام

نحن مع شخصية يُهدِى إليها الشافعى تحذيره ونصحه .. إنها شخصية إنسان يتيه على الناس ويتعالى عليهم دون أن يعمل حساباً لما تأتى به الأيام .

وخير ما يستعمله الحذر !

لكنه أحسن ظنه بالأيام حين حسنت ولم يَخَفْ سوء ما يأتى به القدر !

ولقد تملكه الغرور حين سالمته الليالى وما درى أنه : عند صفو الليالى يحدث الكدر !!

لقد قال اللغويون : إن الأُعيرج حية صماء لا تقبل الرُّقَى . والأعور والأعرج هو الغراب حين يحجل .. ويمكن أن يكون الأُعَيْرج إنساناً شريراً أو تيّاهاً بطراً يختال فى مشيته .

فتعال إلى أبيات الشافعى :

اليقظـة والحـذر

تـاهَ الأُعَيْرِجُ وَاسْـتَعْلى بـِهِ الْبَطَـرُ ... فَقُلْ لَهُ خَيْرُ مَا اسْتَعْمَلْتَهُ الْحَذَرُ

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخفْ سُوءَ مَا تَأْتِى بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالى فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالى يَحْدُثُ الْكَدَرُ

[الانتقاء]

وقفة مع النص :

البطر : الأشر وكفران النعمة وجحودها وهو يدفع صاحبه إلى التعَالى على غيره أو التعالى والغلو فى تيهه وتكبره .

قبـول العُـذر

إن لنا الظاهر والله يحكم بالسرائر ، والشافعى يطلب منا أن نقبل أعذار المعتذرين سواء كانوا صادقين أم كاذبين ! (برّوا أو فجروا) .

فما زالت فيهم بقية من خير !

فالذى يرضيك ظاهره يُعَدّ مطيعاً لك !

والذى يعصيك مستتراً قد أجلّك وعظمك وعمل لوجودك حساباً !

وإن الذى يعتذر خير ممن يتبجّح ولا يعتذر !!

وإن الذى لا يجاهر بالعصيان خير ممن يعلنونه !!

وعلينا أن نتعهد هؤلاء وأولئك حتى يعودوا إلى حظيرة الإيمان .

وفى السابقين من كان يحسن الظّن بمن قصروا ويلتمس لهم الأعذار ويقول مُسَبّقاً :

لعلّ له عُذْرًا وأنت تلوم !

فتعال إلى إمامنا الشافعى نطالع نصيحته :

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذراً ... إنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيما قَالَ أَوْ فَجَرَا

لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرضِيكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَد أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا

وقفة مع النص :

يُقال برّ فى يمينه : أى صدق وكان بارّاً ، وفجر : كذب وكان فاجرًا .

والأبيات نصيحة غالية تُبقى على البقية الباقية من حياء ، وتجعلنا نقبل الناس على علّاتهم .

أدب المناظـــرة

كان الشافعى رضى الله عنه النموذج الحى لأدب المناظرة ؛ فقد عرف بتواضعه وخضوعه للحق .

ويقول : « ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىء » .

« وما فى قلبى من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ، ولا يُنْسَب إلىّ » .

ويقول : « ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة » .

« وما أوردت الحق والحجة على أحدٍ فقبلهما إلا هِبته ، واعتقدت مودته ، ولا كابرنى على الحق أحد ، ودافع الحجة إلا سقط من عينى » .

والمناظرة : مباراة فى المُحَاجّة وصولاً إلى الحقيقة .

والإمام الشافعى خير من يقدم لنا أدب المناظرة فكم نحن فى أمسّ الحاجة إليه فى حياتنا العلمية والأدبية .

ولقد عانى الإمام الشافعى من إسراف « فتيان بن أبى السمح » الفقيه المالكى فى اللّدَدِ والخصومة فى مناظرته حيث وجه إليه كلاماً لا يصح أن يُقال ؛ مما جعل أمير مصر — حين علم بالأمر — يعاقب ابن أبى السمح عقاباً شديداً زاجراً .

لهذا كانت أبيات الشافعى الخمسة دستوراً فى أدب المناظرة . وكيف لا وهى نابعة من تجربة شخصية ؟!

إنه يقول :

١ — إذا ما كُنْتَ ذا فَضْلٍ وعِلْم … بما اخْتَلفَ الأوائل والأواخرْ

٢ — فناظِر من تناظِرُ فى سكونٍ … حليماً لا تُلِحُّ ولا تكابرْ

٣ — يُفيدُك مَا اسْتَفَادَ بلا امتنانٍ … من النُّكَتِ اللطيفة والنّوادِرْ

٤ — وإياك الَّلجُوج ومن يُرائى … بأنى قد غَلَبْتُ ومن يُفَاخِرْ

٥ — فإن الشرّ فى جَنبَاتِ هذا … يُمَنّى بالتقاطع والتدابُرْ

وقفة مع النص :

مادام المناظر ذا فضل وعلم بخلافيات الأوائل والأواخر ، فله أن يناظر من يناظر متحلياً بآداب المناظرة .

١ — فى سكون ، فإذا علا الصوت هبط المنطق .

٢ ــ فى حلم ، فالغضب نار تلتهم الفكر والعقل .

٣ ــ يتخلى عن الإلحاح واللجاجة ، والتمادى فى الخصومة ، والعناد والمكابرة .

ومثل هذه الروح حين تسود المناظرة تؤتى أكلها من أسرار ، وحِكَم ، ونكاتٍ ونوادر ما كان يمكن الحصول عليها لولا تلك المناظرة .

وعلينا أن نحذر مناظرة هؤلاء : .

١ ــ اللّجوج : وهو المتمادى فى الخصومة .

٢ ــ المرائى : وهو الذى يبغى الظهور على مناظره وأنه قد غلبه وليس هدفه الوصول إلى الحق .

٣ ــ من يفاخر : ويستعرض عضلاته وهدفه أن يُرى الناس علمه وتفوقه ليتحدثوا عنه .

ومثل هذا يقال فيه : إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت .. إنه يحمل بين طياته شراً حصاده القطيعة .

الدهر يومان

وقديماً قالوا : يوم لنا ويوم علينا .. ويوماً نُساء ويوماً نُسَرّ !

وهكذا الحياة كما تبدو فى مرآة الشافعى يبصّرنا بها ؛ كى نوطّن أنفسنا على تقبلها ومعايشتها بحلوها ومُرّها فهو يقول :

إن الدهر يومان : يوم كله أمن .. ويوم محفوف بالخطر !

ونحن نشهد فى أيامنا أن الأيام تتبادل فيما بينها الحرب والسلام .

وعيش الناس ــ أيضاً ــ عيشان : عيش صَفْو ، وعيش كدر . وعند صفو الليالى يحدث الكدر !

وربما كان حظ الأكابر والأشراف دون غيرهم أمْناً وصفواً . فبينما تستقر الدرر والنفائس بالقاع تطفو وتظهر على السطح الجيف وهذا ما نشاهده فى بعض مجتمعاتنا .

وبينما تنجو نجوم كثيرة من الأخطار المحدقة بها متمتعة بحرية الحركة والظهور نجد أنه لا يكسف ولا يخسف منها إلا الشمس والقمر !

وإليك ما قاله الشافعى :

١ ـــ الدَّهْرُ يَوْمَانِ : ذا أَمْنٌ وذَا خَطَرٌ
وَالْعِيْشُ عَيْشَانِ : ذَا صَفْوٌ وَذَا كَدَرُ
٢ ـــ أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جِيَفٌ
وَتَسْتَقِرُّ بأقْصَى قَاعِهِ الدُّرَرُ ؟!
٣ ـــ وَفى السَّمَاءِ نُجُومٌ لا عِدَادَ لهَا
وَلَيسَ يُكْسَفُ إلاَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ !!

وقفة مع النص :

وطّن نفسك على تقبل حياتك مادامت هى كذلك .

فضـــل الســـكوت

قال الأقدمون :

إذا كان الكلام من فِضَة ، فالسكوت من ذهب !

وقالوا : من كثر لغطه كثر غلطه .

وفى حياتنا اليومية لا نجد من يندم على سكوته مرة بينما نجد من يندم على الكلام مراراً !

من هنا راح الشافعى يحدثنا عن فضل السكوت .. إنه تجارة، وعلى أسوأ

الفروض إذا لم يظهر ربحها فليس فيها خسارة محققة .

إن الصمت بضاعة الرجال وتجارتهم ، وتاجره يعلو على كل تاجر. إن الإمام الشافعى يحدثنا عن تجربته فى هذا المجال فيقول .

١ ــ وَجَدْتُ سُكُوتى مَتْجراً فَلَزِمْتُهُ
إذَا لَمْ أجِــدْ رِبحاً فَلَسْتُ بِخَـــاسِرِ
٢ ــ وَمَا الصَّمْتُ إلاَّ فى الرِّجَالِ متَاجرٌ
وتَاجِــرُهُ يَعْلُــو عَلَــى كلِّ تَاجِــر

مع النص :

المتْجر ، والتّجارة ، والمُتَاجَر : ما يُتاجِر فيه من عروض التجارة وغيرها ونساؤنا أشد حاجة إلى « **الصمت** » من الرجال !!

ألا ليت النساء يجعلنه تجارتهن ، فيالها من تجارة ، فيها كالهن ، وصَوْنُهن !! وأمْنهن وجمالُهُنّ . إلى جانب ما يغمر البيوت من سكينة واطمئنان وهدوء وراحة بال .

الرّضا بالقــدَر

لا يملك الإنسان إلا الرضا بحكم الدهر ، والتسليم بقضاء الله ؛ فقد تتخلّى الأيام عن إنسان ، وتسقيه المرّ بعد الحلو وتخون العهود ، وربما كان هذا الإنسان يأمل فى حياة سعيدة ومستقبل مشرق باسم فيقع ــ على الرغم منه ــ ما لم يكن يتوقعه ومع هذا فإن عليه أن يرضى بما حكم الدهر !

وللإمام الشافعى تجربته فى هذا المجال فيقول :

١ ــ وما أنا راضٍ من زمانى بما تَرى
ولكننـــى راضٍ بما حكـــم الدهـــرُ
٢ ــ فإن كانت الأيام خانت عهودَنا
فإنى بها راضٍ ولـــكنها قَهْـــرُ

ديـــة الذنـــب

الديَةُ ما يُعْطَاه أولياء القتيل من مالٍ عوضاً من دمه .. وهى مقدرة فى الشرع والجمع ديَات .

والإمام الشافعى يرى فى الاعتذار عن الذنب « دية الذنب » .

إنه يقول :

١ ــ قيل لى :

قَدْ أسَى إلِيْك فلان ∴ ومُقَامُ الفَتَــى علىَ الــذُّلِّ عَارُ !

٢ ــ قلت :

قد جاءنى وأحْدَث عُذْراً ∴ دية الذنب عندنا الاعتذارُ

وقفة مع النص :

يراد بالعذر محو الإساءة وطمسها بالحجة التى يمكن بها ذلك .

وقد قيل للشافعى : إن فلانا أساء إليك ، وسكوتك عن الرد عليه فيه إقامة على الذل ورضا به ؛ ذلك عار عليك !

ولكن الشافعى أسكتهم بقوله :

لقد جاءنى وقدم عذرا ، والعذر يشبه « الدية » حيث يمحو الإساءة ، فكأن شيئاً لم يكن !

إن الله سبحانه وصف نفسه بأنه : غافر الذنب وقابل التوب ، فما بالنا ــ نحن البشر لا نقبل عذر من جاء واعتذر ؟!

وأسَى المقصور مثل أساء الممدودة وهما بمعنى .

الشـــوق إلى مصـــر

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ومصر كثير العشاق .. وقد تاقت نفس الشافعى إليها وبينه وبينها صحارَى

واسعة وقفار شاسعة ، لا بد أن يقطعها فى سفر طويل حتى ينعم بالرحيل إليها ويحقق ما يرجوه ويأمله .

ولكنه حائر لا يدرى ماذا يكون مصيره فيها ؟!

أيُسَاق للفوز والغنى ؟!
أم يُساق إلى قبره ؟!

لقد رحل الشافعى رحلات كثيرة كان لها أثرها فى حياته العلمية فبعد وفاة الإمام مالك رحل إلى بغداد ، ثم عاد إلى مكة ، ثم رجع إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ فأقام فيها شهرا ، ثم خرج إلى مصر وكان وصوله إليها فى سنة ١٩٩ هـ وقيل فى سنة ٢٠١ هـ ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤ هـ كما جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان .

ترى هل كان يشعر باقتراب أجله ؟!

إنه يقول :

١ ــ لقد أصبحت نَفْسِي تَتُوق إلى مِصْرِ
ومن دونِها قطع المَهَامَه والقَفْرِ
٢ ــ فوالله ما أدرى أَلِلْفَوْزِ والغنَى
أُساقُ إليها أم إلى القَبْرِ

[معجم الأدباء ، والانتقاء]

مع النص :

جاء فى معجم الأدباء ذكر هذين البيتين عن أبى بكر بن بنت الشافعى قال :

قال الشافعى بمكة حين أراد الخروج إلى مصر هذين البيتين ، ولكن ابن عبد البر فى الانتقاء فى فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء يذكر رواية أخرى ــ لعلها تناسب مسار رحلاته ــ فقال ، ورد عن أبى الحسن بن محمد الصباح الزعفرانى قال : لما أراد الشافعى الخروج من العراق إلى مصر أنشد لنفسه :

أخي أرى نفسي تتوق إلى مِصْر ومِنْ دونها أرض المفاوز والقفر
فوالله ما أدرى أللفوز والغنى أُسَاق إليها أم أساق إلى قبرى ؟!

○○○

والمَهَامِه جمع مَهْمَه : الصحراء الواسعة وكذلك المفاوز جمع مفازة : الصحراء المهلكة . والقفر : الأرض الخلاء التى لا نبات فيها ولا سكان .

العِبرة باللابس لا بالملابس

ورد فى حلية الأولياء لأبى نُعَيْم :

حدثنا أبو الفضل نصر بن أبى نصر الطوسى قال :

سمعت أبا الحسن على بن أحمد القصرى يقول : حدثنى بعض شيوخنا قال :

لما أشخص الشافعى إلى (سُرّ مَنْ رَأَى) دخلها وعليه أطمار رثة وطال شعره ، فتقدم إلى مُزَيِّن فاستقذره لما نظر إلى رثاثته ، فقال له : تمضى إلى غيرى ، فاشتد على الشافعى أمره ، فالتفت إلى غلام كان معه فقال : أَيْشِ مَعَكَ من النفقة ؟ قال : عشرة دنانير قال : ادفعها إلى المزين ، فدفعها الغلام إليه ، فولى الشافعى وهو يقول :

١ ــ عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُباعُ جَميعُها
بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنهُنَّ أَكْثَرَا
٢ ــ وَفِيهِنَّ نَفسُ لَوْ تُقَاسُ بِبَعْضِهَا
نُفُوسُ الْوَرَى كانتْ أَجَلَّ وأَكْبَرا
٣ ــ وَمَاضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إِخْلاقُ غِمْدِه
إِذَا كَانَ عَضْباً حَيْثُ وَجَّهْتَهُ فَرَى
٤ ــ فإن تَكُنِ الأَيَّامُ أَزْرت بِبِزَّتى
فكم من حُسَامٍ فى غِلافٍ تكسَّرا

[معجم الأدباء]

وقفة مع الأبيات :

صحيح أن الدين يأمر بالنظافة ، وليس من الكبر أن يكون الرجل ثوبه نظيفاً ونعله نظيفا ، والجمال محبوب ، لكن ماذا يفعل من يمر بظروف تقضى عليه أن يكون رث الثياب ؟

هنا ينبغى أن يكون تقييمنا للناس على أساس التقوى والسلوك القويم ، فالله لا ينظر إلى صورنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا . ومما يؤلم النفس العزيزة أن يزدريها الناس للظروف التى تمر بها ، وللثياب التى ترتديها فالسيف لا يضره تمزق غمده وغلافه ما دام قاطعا بتارا . وهكذا يلفتنا الشافعى إلى ما ينبغى أن نكون عليه من تقدير للنفوس العزيزة وإن بدت فى بِزّة (ملابس) رثة !

والفَلْس : عملة تساوى المليم . والورى الخلق . ونصل السيف : حده . والغِمد : ما يوضع فيه السيف .

والعَضْب : القاطع . وفرى : قطع . أزرت : حقرت . والحسام : السيف القاطع . والبِزّة : الثياب . وأخلق : بَلِىَ وتمزق وقَدُمَ وصار خَلَقاً . قديماً .

احذر مودّة الناس !

يبدو أن الشافعى كان نسيج وحْدِه خلقاً وعِلْما وأنه كان يعانى الغربة فى زمانه ، ويفتقد المودة الصادقة .

وهو هنا يحدثنا عن تجربته وينصح لنا ألا نساير الزمان وأهله وأن نغسل أيدينا منهما ، وأن نحذر مودة الناس ؛ لننال الخير !

لقد اطّلع على أحوال الناس فلم يجد له صاحباً يصحبه ، فترك أسفلهم لكثرة شره ، وأعلاهم لقلة خيره !

إنه يقول :

كُنْ سَاكناً فى ذا الزَّمَانِ بِسَيْرِهِ ... وَعَنِ الْوَرَى كُنْ رَاهِباً فى دَيْرِهِ
وَاغْسِلْ يَدَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ... واحْذَرْ مَوَدَّتَهُمْ تَنَلْ مِنْ خَيْرِهِ

إنّى اطَّلَعْتُ فلَمْ أجدْ لى صَاحِباً أصْحبهُ فى الدَّهْرِ وَلاَ فى غيْرِهِ
فَتَرَكْتُ أسْفَلَهُمْ لكَثْـــرَةِ شَرِّهِ وَتَرَكْتُ أعْلاهُم لِقلةِ خَيْـــرِهِ

وأراك تقول :

الدعوة إلى العزلة والرهبنة ، ونفض اليد من الزمان وأهله وعدم مسايرته دعوة انعزالية سلبية ليس وراءها إلا التوقف والضعف . فلا رهبانية فى الإسلام .

ولابد أن يكون للإنسان رسالة ودور فى حياته ، إنما ينبغى الحذر حتى لا يلدغ من جحر مرتين ، ولا مانع حين يتعامل مع الذئاب ــ أن تكون فأسه فى يده ــ كما قالوا !!

وسوف يظل الخير فى أمتنا حتى قيام الساعة ولن يعدم الإنسان الخيّرين !

المرْء بأصغريه قلبه ولسانه

وبالقلب واللسان تصدى الشافعى للمشكلات وكشف حقائقها بالنظر دون أن يسائل هذا وذاك فلم يكن أبداً إمَّعَة !

إنه كما قال :

مِدْره الأصغرين (قوى القلب واللسان) .

جلّاب خير !

وفرّاج شر !

ذكر الأبيات الأربعة الآتية صاحب معجم الأدباء فقال فى الجزء السابع عشر : حدّث الحسن بن محمد الزعفرانى قال : سُئل الشافعىّ عن مسألة ، فأجاب فيها ، ثم أنشأ يقول :

١ ــ إذا المشكلاتُ تصَدّيْنَ لى كشَفْتُ حقائِقهـــا بالنظـــر
٢ ــ لِسَان كَشِقْشِقِةِ الْأَرحَبِـــىِّ وكالْحُسَامِ الْيمانــى الذَّكَــرْ
٣ ــ وَلَسْتُ بِإمَّعَةٍ فى الرِّجَـــال أُسَائِـــل هذا وَذَا مَا الْخَبَـــرْ ؟
٤ ــ وَلَكِنَّنى مِدْرَهُ الْأَصْغَرَيْـــنِ جلّابُ خَيْـــرٍ وَفَـــرَّاجُ شَر

وقفة مع النص :

وهكذا ينبغى أن يكون المؤمن والفقيه المجتهد مادام يملك وسائل الاجتهاد فليس يحسن به التقليد . إنه يكشف الحقائق بالنظر والتأمل .

إن له لسانا قادراً حاسماً فى المشكلات ، وليس بإمّعَةٍ أو تابع لغيره ، وهو إلى جانب هذا وذاك مِدْرَهُ الأصغرين : (قوى القلب واللسان) .

والأرحبىّ : نسبة إلى أرحب . والشقشقة : ما يخرجه الجمل من فمه عند هياجه . ويقولون : النجائب الأرحَبِيّة . والحسام الذكر : القوى القاطع .

وقد جاء ذكر هذه الأبيات أيضا ـــ فى المستطرف للإبشيهى . ونور الأبصار .

كثرة الأخلاء وقلة الأعداء

ذكر الإمام الشعرانى فى كتابه تنبيه الغافلين قوله :

كان الشافعى ـــ رضى الله عنه ـــ كثيراً ما يُنْشد قوله :

وليس كثيراً ألْفُ خِلٍّ لواحِدٍ وإن عَدُوّاً واحِداً لكثير !

وقفة مع النص :

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على حب الشافعى لكثرة الأصدقاء ، ونفوره من وجود الأعداء وهى أخلاق المعلمين والأئمة الذين يتعرضون للناس ويستكثرون من تلاميذهم وأصحابهم .

أمر فوق أمرى !

النّوى والبُعد مما يثير تفكير الإنسان وبخاصة إذا كان أليفاً .

ولا يملك الإنسان الذى يعانى بُعد الأليف إلا الصبر وعلو الهمة لكيلا تذوب نفسه حسرات . وإذ كان يذم الأيام التى فرقت بينه وبين إلْفه .

إنه لم يقصر ، ولكن قدَّر الله وما شاء فعل ، والأمر أمره : لقد سعى إلى الخير جهده بهمة وصبر فإذا لم يتحقق له ما أراد فلتكن مشيئة الله !

إنه يقول :

١ ــ أفكر فى نوى إلْفى وصَبْرى وأَحْمَدُ هِمّتِى وأَذُمُّ دَهْرى

٢ ــ وما قَصَّرْت فى طَلَبٍ ولكن لربِّ الناسِ أمرٌ فوق أمرى

من نكد الدنيا على الإنسان !!

ما أكثر صور التَّعاسة والشقاء فى حياتنا !!

تحب إنسانا وتعطيه من نفسك ومالك ؛ فيحب غيرك ولا يحبك .

تريد الخير لإنسان وتفكر فى مصلحته بينما هو يفكر فى الإضرار بك وضيرِك !

وكم فى الدنيا من مفارقات عجيبة وأمور غريبة ، فعلينا ألاّ نفاجأ بها ، ونُدهَش لها ، ونُصْدمَ عند وقوعها ؛ فتلك هى الدنيا ! ، وهذا هو حالها وشأنها !!

ومع هذا فلن يجف نهر الحب !

وسيظل الخير فى أمتنا إلى يوم القيامة !

إن الإمام الشافعى يعيش تجارب إنسانية فيصور وقعها على نفوس المحبين والخيِّرين ليس إلا . فكم يكون جميلا تبادل المحبة والخير !!

١ ــ وَمِنَ الشَّقَاوةِ أن تُحِبَّ وَمَنْ تُحِبّ يُحِبُّ غَيْرَكْ

٢ ــ أو أنْ تُريدَ الخيرَ للإنسانِ وَهْوَ يُريدُ ضَيْرَكْ

[آداب الشافعى ومناقبه]

وتمر الأيام ونجد زوجة تتخذ لها عشيقا ، وابنا يتآمر مع أصدقائه على أبيه ، أليس ذلك من الشقاوة والتعاسة ، وسوء الحظ ؟!!

قافية السين   س

البحث عن صديق

يرى الإمام الشافعى أن الصديق الذى لا ينفع يوم شدة قريب الشبه بالعدو .

وما قيمة الاحتفاظ بالإخوان والأصدقاء إذا لم يكن لهم دور فى مواساة الصديق والتخفيف عنه ومساعدته على الخروج من الأزمة والشدة التى حلّت به ؟

إن البحث عن « أخى ثقة » شغل الشافعى حتى ألهاه التماسه طوال الدهر .

وأخيراً وبعد جهد وجد البلاد ومن عليها قد تنكرت له ، وكأن أناسَها ليسوا بناس ، إنه يحدثنا عن تجربته فى رحلة البحث عن صديق فيقول :

١ ــ صَدِيقٌ لَيْسَ يَنْفُــع يَوْمَ بُؤْسٍ
قَرِيبٌ مِنْ عَدُوٍّ فى الْقِيَــــــاسِ

٢ ــ وَمَا يَبْقى الصَّدِيقُ بِكُلِّ عَصْرٍ
وَلاَ الإِخْـــــوَانُ إلاَّ لِلتَّـــــآسِى

٣ ــ عَبَرْتُ الدَّهْرَ مُلْتَمِساً بِجُهْدِى
أَخـــا ثِقَـــةٍ فَأَلْهَـــانى التِمـــاسِى

٤ ــ تَنَكَّـرَتِ الْبِـلاَدُ ومن عَـلَيْهَـــا
كَأَنَّ أُناسَهَـــــا لَيْسُوا بِنَـــــاسِ

مناجاة !

إن رحمة الله تملأ قلبه أنساً وفرحاً وطمأنينة فى السر والجهر والإصباح والغَلَس (ظلمة آخر الليل) .

ولا يفتأ بذكر الله حتى عندما يتقلب من نومه وفى سِنته (نعاسه الخفيف) الذى يسبق النوم . فذكرِ الله على لسان كل مؤمن .

وكيف لا وقد مَنّ الله على قلبه بمعرفة آلائه ونعمه فهو ذو الآلاء والبركات . والله هو القُدّوس الطاهر المنزه عن النقائص .

والشافعي يذكر ذنوبه التى يعلمها الله وأمله أن الله لن يفضحه ، ولن ينزل به ما يسيء .

وهو يطلب من ربه أن يمنَّ عليه بذكر الصالحين ليكونوا قدوة له على الطريق ، وأن يفقهه فى الدين ويزيل ما يلتبس عليه .

وأن يكون معه طول دُنياه وآخرته ويوم حشره بحق ما جاء فى سورة عبس من ذكر الصحف والوجوه المستبشرة ! انه يقول :

١ ــ قَلْبِى بِرَحمتِكَ اللَّهُــمَّ ذُو أُنس
في السِّرِّ وَالْجَهْرِ وَالإصبَاحِ وَالْغَلَسِ

٢ ــ وَمَا تَقَلَّبْتُ مِنْ نَوْمِى وَفى سِنَتـى
إلاَّ وَذكْـرُك بَيْـن النَّـفْسِ وَالنَّـفَسِ

٣ ــ لَقَـدْ مَنَنْتَ عَلَـى قَلْبـى بِمَعْرفَـةٍ
بأنَّكَ اللهُ ذُو الآلاءِ وَالْقُــدسِ

٤ ــ وَقَـدْ أَتَيْتُ ذُنُوبـاً أَنْتَ تَعْلَمهَـا
وَلَـمْ تَكُـنْ فَاضِحِـى فِيهَا بِفِعْلِ مُسِى

٥ ــ فَامْنُنْ عَلَىَّ بِذِكْرِ الصَّالِحِيـنَ وَلا
تَجْعَلْ عَلَـىَّ إذاً فى الدِّيــنِ مِنْ لَبَسِ

٦ ــ وَكُنْ مَعِى طُولَ دُنْيَـاى وَآخِـرَتى
وَيَـوْمَ حَشْرِى بِمـا أُنْـزِلَت فى عَبَس

وقفة الحُرّ بباب نحس

كان الإمام الشافعى عزيز النفس سخياً حتى قال مخالطوه : إنه كان أسخى الناس بما يجد .

وقال عن نفسه : لقد أفلست ثلاثة إفلاسات ، فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حُلِىّ ابنتى وزوجتى ولم أرهن قط ! ويقول البُسْتى نزيل مكة : كان الشافعى قلّما يُمسك الشىء من سماحته .

وقال الحميدى قدم الشافعى من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خِباءه خارج مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتى فرَّقها جميعاً .

ومن أجل هذا نراه يجمع ما يكاد يكون حدوثه شاقاً على النفس أو مستحيلا حدوثه فيراه أهون من وقفة الحر بباب نحس يرجو نواله وعَطاءَه ! تُرى ماذا قال ؟

١ ــ لَقَلْعُ ضِرْسٍ ، وَضَرْبُ حَبْسٍ	وَنَــــزْعُ نَفْسٍ ، وَرَدُّ أَمْسِ
٢ ــ وَقَــرُّ بَرْدٍ ، وَقَــوْدُ فَرْدٍ	وَدَبْــغُ جِلْــدٍ بِغَيْــرِ شَمْسِ
٣ ــ وَأَكْلُ ضَبٍّ ، وَصَيْدُ دُبٍّ	وَصِرْفُ حَبٍّ بِأَرْضِ خَرْسِ
٤ ــ وَنَفْخُ نَارٍ ، وَحَمْلُ عَارٍ	وَبَيْــعُ دَارٍ بِرُبْــعِ فَلْسِ
٥ ــ وَبَيْعُ خُفٍّ ، وَعدمُ إِلْفٍ	وَضَرْبُ أَلْــفٍ بِحَبْــلٍ قَلْسِ
٦ ــ أَهْوَنُ مِنْ وَقْفَةِ الْحُــرِّ	يَرْجُــو نَوَالاً بِبَــابِ نَحْسِ

وقفة مع النص :

لقد عد ستة عشر لونا أهون على نفسه من الوقوف بباب نحس .

١ ــ قَلْع ضِرس .

٢ ــ ضرب حَبْس .

٣ ــ نزع نفس (خروج الروح) .

٤ ــ ردّ أمس (إعادة اليوم الذى مضى) .

٥ ــ القَر (شدة البرد) .

٦ ــ قود فرد (قتله قصاصا) .

٧ ــ دبغ جلد بغير شمس (قبل استخدام الوسائل الحديثة فى الدباغة) .

٨ ــ وأكْل ضبّ . وقد كَرِه الرسول ﷺ أكله وبعض النفوس تعافه وإن كان حلالا .

٩ ــ وصيدُ دُب .

١٠ــ وصِرفُ حَبّ بأرض خرس (أى لا تنبت) . (أى حَبّ صِرْف خالص نقى) .

١١ ــ ونفخ نار (وما فيه من التعرض لها ولدخانها) .

١٢ــ وحملُ عار .

١٣ــ وبيع دار بربع فَلْس .

١٤ــ وبيع خُفٍّ (والمشى حافيا) .

١٥ــ وعدم إِلْف (فقد الأليف) .

١٦ ــ ضرب ألف بحبل قَلّس (حبل غليظ من حبال السفن) .

العلم مَغْرِس كلِّ فخر

من الوصايا الغاليات لعبد الملك بن مروان :

يا بَنِيّ ، تعلموا العلم ؛ فإن كنتم سادةً فُقْتُم ، وإن كنتم وسطا سُدْتم . وإن كنتم سُوقة عشتم .

وقالوا : أعطِ العلم كلك يُعْطِك بعضه ، وأعطه بعضك لا يعطيك شيئاً .

وهنا يلتقى الإمام الشافعي مع هاتين الوصيتين فيقول :

١ ــ العِلْمُ مَغْرِسُ كُلِّ فَخْرٍ فَافْتَخِرْ
وَاحْذَرْ يَفُوتُكَ فَخْـــرُ ذَاكَ المُغْــرَسِ

٢ ــ وَاعْلَمْ بِأَنَّ العِلْـــمَ لَيْسَ يَنَالُـــهُ
مَــنْ هَمُّــهُ فـــى مَطْعَـــمٍ أَوْ مَلْبَـــسِ

٣ ــ إلاَّ أَخُو العِلمِ الَّذِى يُعْنَـــى بِهِ
فى حَالَتَيْــهِ عَارِيـــاً أَوْ مُكْـــتَسِى

٤ ــ فَاجَعلْ لِنَفْسِكَ مِنْـهُ حَظًّا وَافِراً
وَاهْجُـــرْ لَهُ طِيبَ الرُّقَـــادِ وَعَـــبّسِ

٥ ــ فَلَعَل يَوْماً إنْ حَضَرْتَ بِمَجْلِسٍ
كُنْتَ الرَّئِيسَ وَفَخْرَ ذَاكَ المَجْـلِسِ

مع النص :

خير ما يفتخر به الإنسان العلم ، وكيف لا وهو كالأرض الطيبة التى تضم بين جنباتها ألواناً مختلفة من الغرس ، أو هو الأشجار المتنوعة التى يغرسها الإنسان فتثمر ويُستظَلّ بظلها حقا إن العلم « مَغْرِس كل فخر » .

ونيل العلم بالتفرغ له ، فمن كان همه فى غيره من مطعم أو مشرب فليس يناله . إن أخا العلم الذى يُعنى به هو الذى يناله سواء كان عرياً أو مكتسياً فذلك لا يشغل باله وما دام الأمر كذلك فاقبل على العلم واهجر من أجله لذيذ النوم وجد ولا تهزل لتنال أوفر حظ . ومن يدرى فربما أصبحت ممن يشار إليهم : موضع التقدير والاحترام .

شهادة حَقّ

كان للإمام الشافعى خصومه ، فنراه حريصاً على أن يكشف للناس عن عقيدته ومذهبه .

لقد رموه بالرّفض ، ويَرُدّ : ما الرفض دينى ولا اعتقادى !

إن الرافضة فرقة من الشيعَة قالوا لزيد بن على :

« ابرأ من الشيخين نقاتل معك » فأبى ، وقال :

« كانا وزيرى جَدّى ﷺ فلا أبرأ منهما » ؛ فتركوه وارفضوا عنه !

ولكن الشافعى هنا يشهد بوحدانية الله ، ويؤمن بالبعث ، وأن الإيمان قول وعمل طيب ، والعمل قد يزيد وينقص ، ومن هنا يتفاوت الناس فى الثواب .

ويؤمن بأن الخلفاء الأربعة أئمة المسلمين يُهتدى بهداهم ولا تُنتقص أقدارُهم ، وقبَّح الله من يتنقصهم ولَحاه . أرأيت كيف كان صادقاً حين قال :

« ما الرفض دينى ولا اعتقادى !! » ؟

فتعال نقرأ ما كان يُنشده فى هذا الشأن :

١ ــ شَهَدْتُ بِأَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيْرُهُ
وَأشْهَدُ أنَّ البَعْثَ حَقٌ وَأخْلَصُ

٢ ــ وَأنَّ عُرى الْإيمانِ قَوْلٌ مُبَيَّنٌ
وَفِعْلٌ زَكِىٌّ قَدْ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

٣ ــ وَأنَّ أبَا بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَبِّهِ
وَكَانَ أبُو حَفْصٍ عَلَى الْخَيْرِ يحرِصُ

٤ ــ وَأُشْهِدُ رَبِّى أنَّ عُثْمانَ فَاضِلٌ
وَأنَّ عَلِيًّا فَضْلُهُ مُتَخَصِّصُ

٥ ـ أئِمَّـــةُ قَوْمٍ يُهْتَــــدَى بِهُدَاهُــــمُ
لَحَــــى اللهُ مَنْ إيَّاهُـــــمُ يَتَنَــــقَّصُ

نور الله لا يُهدى لعاصٍ

إن قلب العاصى مظلم .. مُغْلَق لا يستقبل نور الله ، ولا يتقبله ! والعلم نور من الله ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين !

والسعيد السعيد من أعطاه الله لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً !

وإمامنا الشافعى أتم حفظ كتاب الله وهو فى السابعة ! وعندما عزم على الرحلة إلى مالك استعار موطّأه وحفظه فى تسع ليالٍ !

إنه يعود بنا إلى نقطة البداية .. فيحدثنا عن شكوى إلى أستاذه بالعراق وكيع . ونصيحة أستاذه له ، وهى مهداة إلى طلاب العلم فى كل مكان !

شَكَوْتُ إلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِى ... فَأَرْشَدَنى إلَـــى تَرْكِ المَعَـــاصِى
وَأخْبَـــرَنى بأَنَ العِلْـــمَ نُورٌ ... وَنُـورُ اللهِ لا يُهْــدَى لِعَـــاصِى

يا رواد العلم فى كل مكان ، طهروا أنفسكم ، قبل أن تقبلوا على ساحة العلم ، فالعلم نور من الله .. وقولوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا !

وتذكروا أن العلم كالكير ينفى خبثه !!

قافيــة الضـــاد ض

عـــادة الأيـــام

العاقل من كان بعيد النظر ، يفكر فى العواقب ، ويعمل للمستقبل حساباً ..

يأخذ من شبابه لهرمه ، ومن غناه لفقره ، ومن دنياه لآخرته !

وعندما تعطيه الأيام تنتظر منه أن يرد العطاء ويبذل من ذات نفسه ، وهو فى قمة قدرته ، فالأيام تمضى ، ويأتى على الإنسان زمان يعجز فيه عن رد ما أقرضته الأيام ! إن قرض حسن علينا أن نرده عند القدرة على الأداء !

والأبيات دعوة إلى البذل والجود قبل فوات الأوان .

١ ــ إذا لَمْ تَجُودُوا وَالْأُمُورُ بِكُم تَمْضِى
وَقَدْ مَلَكَتْ أَيْدِيكُمُ البَسْطَ وَالقَبْضَا
٢ ــ فَمَاذَا يُرَجَّى مِنْكُمُ إنْ عُزِلْتُمُ
وَعَضَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِأَنْيَابِهَا عَضًّا
٣ ــ وَتَسْتَرْجِعُ الْأَيَّامُ مَاوَهَبَتْكُمُ
وَمِنْ عَادَةِ الْأَيَّامِ تَسْتَرجِعُ القَرْضَا

وقفة مع الأبيات :

ونعود فنتساءل :

هل هناك أمل فيمن عزل أو نكب أن يكون أهلاً للعطاء ؟ إن فاقد الشئ لا يعطيه !

وإذا بخل من يقدرون على البذل وتملك أيديهم المال فمن يعطى ؟

على كل منا أن يسأل نفسه : ماذا أعطيت ؟ قبل أن ينسى ما أخذ !!

حُبّ آل مُحَمّد ﷺ

بعد وفاة مالك خرج الشافعى إلى اليمن فولّى عملا من طرف واليها ، ولكن من كان مثله فى استقامته ونزاهته ، لا يقبل بحال أن يغض الطرف عما يقع فى الوسط الذى يعمل فيه من اغتصاب وارتشاء دون محاولة لتغيير المنكر .

وهكذا كان الشافعى يتصدى للدفاع عن حق المظلوم ، ولا يتردد فى مجابهة رجل السُّلطة بما فى سلوكه من مخالفة للعدل .

وهذا الموقف من الشافعى دفع خصومه إلى التآمر ضده ، فاتهموه بالتشيع ، وبأنه يقدم المساعدات للمناهضين للدولة من الشيعة ، ويدعو إلى مبايعة أحد العلويين ، ورفعت هذه التهمة إلى الخليفة هارون الرشيد ؛ فأمر بجلب الشافعى إلى بغداد لا ستنطاقه[1] ، فحمل الإمام إلى عاصمة الخلافة حوالى سنة ١٨٤ هـ . ولما مثل أمام الرشيد استطاع أن يبرئ نفسه مما اتهم به ، فعفا عنه ، وقربه منه معجباً بشخصيته العلمية .

إنه يحب آل البيت وليس كل من أحب آل البيت رافضياً

ويحدثنا الربيع بن سليمان فيقول :

سمعت الشافعى يقول فى حجه إلى مكة الأبيات الآتية ، فما كان يصعد شرفاً ، ولا يهبط وادياً إلا أنشأ :

يا راكبـــا ...

يَارَاكِباً قِفْ بِالمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى وَاهْتِفْ بقَاعِدِ خَيْفِهَا وَالنَّاهِض

سَحَراً إذا فَاضَ الْحجِيجُ إلَى مِنًى فَيْضاً كَمُلْتَطِمِ الفُرَاتِ الفَائِضِ

إنْ كانَ رَفْضاً حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فلْيَشْهَدِ الثَّقلانِ أنِّــى رَافِضِى

[حلية الأولياء ومعجم الأدباء]

وقفة مع النص :

يقصد الحجاج مِنًى عند الفجر (السحر) من اليوم الثامن من ذى الحجة فيمكثون فيها إلى طلوع شمس اليوم التالى ، حيث يقصدون عرفة ، وإليها يفيض الحجاج من

(١) مساءلته واعترافه .

عرفة بعد غروب شمس اليوم التاسع حيث يمكثون بها يوم العيد الأكبر وأيام التشريق ، ويرمون الجمرات (بالمحصّب) بعد مبيتهم بالمزدلفة ليلة العاشر .

وفيها مسجد الخيف وترى الحجاج هناك بين قاعد وناهض والشاعر يعلنها صريحة فى هذا الجمع الطاهر المؤمن إنسه وجِنّه :

إن كان رفضاً حُبُّ آل محمدٍ فلْيشهد الثّقلان أنّى رافِضى !

قافيـــة العيـن ع

أحِب ولا أُحِب !

لو سئلتَ : من أولئك الذين تحبهم من الناس ؟ ومن أولئك الذين تكرههم ؟ فماذا يكون جوابك ؟!

إن الحب فى الله ، والكره فى الله من صفات المؤمنين المتقين !!

والإمام الشافعى يجيب فى تواضع العلماء ؛ لكيلا يزكى نفسه ، فيقول :

أحب الصالحين ولست منهم !

وهو يرجو أن يكون هذا الحب شفيعاً له عند الله فمن أحب قوماً حشر معهم ، ومن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله اثنان تحابَّا فى الله .

وهو يكره من يتاجرون فى المعاصى ويجعلونها بضاعتهم ولو كانوا مثله ، وهكذا المؤمن يحب الحق ويتقبله ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان بعيداً ، ويرد الباطل ويكرهه ممن جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيباً أو قريباً .

أُحبُّ الصَّالِحِينَ وَلسْتُ مِنْهُمْ لعَلِّى أنْ أنـالَ بهمْ شَفَاعَهْ
وَأكْرَهُ منْ تِجَارَتُـهُ المَعَـاصِى وَلـوْ كُنَّـا سَواءً فى البِضَاعَهْ

فــن النصــيحة !

النصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين واجب كل مسلم ! .

ولكن قد ننصح فلا نجد آذاناً صاغية ، ولا قلوباً واعية ، فتدخل النصيحة من أذن لتخرج من الأذن الأخرى !!

فما الذى يضمن للنصيحة القبول ؟

إن من نصح أخاه سراً فقد نصحه وزانه !

ومن نصحه جهراً فقد فضحه وشانه !

فعلينا أن نتجنب النصيحة لمن نريد وهو فى جماعة ؛ فإن ذلك نوع من التوبيخ ، ولا يلومن الناصح إلا نفسه إذا لم يجد إلا الرفض والنفور والخروج على الطاعة ! فيأيها الآباء ، ويأيها المدرسون ويا من يهمهم الأمر ، إن النصح على انفراد كفيل بتحقيق المراد ! يقول إمامنا الشافعى :

تَعَمَّــدْنى بِنُصْحِكَ فى انْفِــــرَادِى ... وَجَنِّبْنِــى النَّصِيحَــةَ فى الْجَمَاعَــهْ
فَإِنَّ الـنُّصْحَ بيْـنَ النَّـــاسِ نَوْعٌ ... مِنَ التَّوْبِيـخِ لا أَرْضَى اسْتِمَاعَـهْ
وَإِنْ خَالَفْتَنِى وَعَصَيْتَ قَوْلِــى ... فَلاَ تَجْـزَعْ إِذَا لَمْ تُعْـطَ طَاعَـهْ

متى نشتغل بعيب أنفسنا عن عيُوب الآخرين ؟!

من شأن المؤمن الـورع ألا تكون له جرأة على ارتكاب ما حرم الله ؛ فهو يتحرج ويتوقّى عن المحارم ، وما يزال يترقى فى درجات الورع حتى يُكفَّ عن الحلال المباح .

ومن كان ورعاً اشتغل بعيبه عن عيوب الناس ، فلا يرى إلا عيب نفسه .

ومثله مثل المريض الذى شغله وجعه عن وجع الناس .

إن الحديث عن عيوب الآخرين وسيلة لإخفاء عيوب النفس ، إلى ما فيها من غيبة حرم الله ممارستها ، ولا تكاد تجد اثنين إلا وقد تخذا من ثالث موضوعاً للحديث فمتى نكف عن هذه العادة ، ونعرف واجبنا تجاه الآخرين وتجاه أنفسنا إن كنا حقا عقلاء ورعين ؟!

الْمَرْءُ إنْ كَانَ عَاقِلاً وَرِعاً ... أَشْغَلَهُ عَنْ عُيوب غَيْرِه وَرَعُهْ
كَمَا الْعليلُ السَقِيمُ أشْغَلَهُ ... عَنْ وَجَعِ النَّاسِ كُلِّهِم وَجَعُهْ

إرادة النفع

كان محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى النعمان قد بلغ عند الرشيد مبلغاً جليلاً ، وكان إماماً من أئمة فقه الإمام أبى حنيفة ؛ فكتب إليه الشافعى :

لَسْتُ أَدْرى ماذا أقولُ ولكن ... أَبْتَغِى من عرِيض جَاهِك نَفْعَا
والفَتَى إن أراد نَفْعَ أخيه ... فهو أدرى فى أمره كيفَ يسعى !

[عين الأدب والسياسة ووين الحب والرياسة]

وقفة مع النصّ :

بعد أن ثبتت براءة الشافعى مما نسب إليه أمام هارون الرشيد ، عفا عنه وقربه منه معجباً بشخصيته العلمية .

وفى هذه الفترة كان أكثر اتصاله برجلين أخذ عنهما ، كما أخذا عنه .

أولهما ـــ محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة وصاحبه الذى آلت إليه رئاسة المذهب الحنفى بعد أبى يوسف .

وثانيهما ــ أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي والمجتهد الكبير وكان مذهب الشافعى فى هذا الجزء من حياته هو مذهب الإمام مالك بن أنس .

ولعلك تقف على ما كان يريده الشافعى من محمد الشيبانى .

لمن نعطى رأينا ؟

إن رأينا ــ إن صدق ــ هو خلاصة تجاربنا .. لم نحصل عليه إلا بعد صبر ومعاناة وسهر وإعمال فكر ، فجدير به ألا يعطى إلا إلى من هو فى أمسِّ الحاجة إليه .. من يعرف قيمته .. من يقدره .. من يهتم به .. من يجد فيه ضالته المنشودة .

أما أولئك المعرضون الذين لا يريدون منا رأيا فمن الخطأ أن نقدم لهم الرأى .

قال حرملة :

سمعت الشافعى يُنْشد :

ولا تُعْطِيَنّ الرأى من لا يُريده فلا أنت محمود ولا الرأى نافِعُه

[آداب الشافعى ومناقبه ص ٢٧٦]

ويا لها من نصيحة غالية .

لكل الذين يؤذنون فى « مالطة » .

ولكل الذين ينفخون فى « قربة مقطوعة » .

وينسون أن من يقدمون له الرأى قد وطَّنَ نفسه على أن يكون له « أذن من طين وأذن من عجين » !!

الذُّلّ فى الطَّمع !

قالوا : العلم خير من المال ، فبالعلم يمكننا الحصول على المال ، وليس بالمال يمكننا الحصول على العلم .

ومن آتاه الله علما نافعا فحسبه ما أعطاه الله ، وعليه أن يرضى . وليقل : جلّ من قسَّم الحظوظ !

فالنــــاس هذا حظـــــه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

وعليه أن يعيش عزيزاً بالعلم ، ولا يذل نفسه للحصول على المال ، فكم أذل الحرص والطمع أعناق الرجال !

إن على الإنسان أن يراقب ربه ، ويرجع إليه ، ولا يفرح بالطفرة والمكسب السريع ليعلو شأنه على غير أساس ومهما كانت وسيلة الكسب ؛ فما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع !

وهكذا ينبغى أن نراجع أنفسنا ؛ لنعيش على أرض الواقع بدلا من التحليق فى دنيا الأحلام والأوهام والأطماع التى ليس لها دوام .

حَسْبِــي بِعِلْمِــى إنْ نَفَــعْ مَا الـــذُّلُّ إلا فى الطَّمَــعْ
مَنْ رَاقَبَ اللهَ رَجَـــعْ مَا طَارَ طَيْـــرٌ وَارْتَفَـــعْ
إلاَّ كَمَـا طَـار وَقَـعْ

سِهَام الدُّعـاء !

إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..

وما رميتَ إذ رميتَ ولكنّ الله رَمَى ..

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب !!

إنها سهام نفاذة لا تُتَّقَى بدروع ؛ تُلاحِق الظَّلوم حتى يُنْتَقَم منه للمظلوم ، ولن يفلت منها !

تنـام عينــاك والمظلــوم منتبــه يدعـو عليك وعين الله لم تنـم

إن الإسلام تعبُّد ، واعتراف لله بالعبودية ، والله يغار إذا انتهكت حرمات عبده .

والإسلام اتصال دائم بين العبد وربه ومناجاة ودعاء ، وقد طلب الله من عباده أن يُقْبلوا عليه بالدعاء فى السراء والضراء ﴿ **ادعونى أستجب لكم** ﴾ .

والإمام الشافعى يحكى لنا إحدى تجاربه مع الظالمين ، فيقول :

وَرُبَّ ظلُومٍ قَدْ كُفِيتُ بِحَرْبِهِ فَأَوْقَعَهُ الْمَقْدُورُ أَىَّ وقوعِ
فَمَا كانَ لِىَ الإسْلامُ إلاَّ تَعبداً وَأدْعيةً لا تُتَّقى بِدُرُوعِ
وَحَسْبُكَ أنْ ينْجُو الظَّلُومُ وَخلفهُ سهامُ دُعَاءٍ مِنْ قِسِىِّ رُكُوعِ
مُرَيَّشَةً بِالْهُدْب مِنْ كلُ سَاهرٍ مُنْهلَّةً أطْرَافُهَا بِدُمُوعِ

وقفة مع النص :

إنه يقول : كم من ظلوم لا طاقة لى بحربه كفانى الله شره ، فوقع فى يد المقدور ، وحل به المحذور !

إن الإسلام حصن لصاحبه ، وأدعية المسلم لا يفلت الظلوم منها مهما تحصن بدروع وغيرها .

ويكفى أنه عندما يشعر بالنجاة فلن يفلت من سهام الدعاء .. إنها تظل تلاحقه حيث تنطلق من الراكعين الساهرين الباكين .

وكما ينطلق السهم سريعاً عندما يركب عليه الريش من قسِى مُنْحنيةً على هيئة الهلال ، فكذلك تنطلق الدعوات من أفواه الراكعين مريشة بأهداب عيونهم الساهرة تتساقط من أطرافها دموع المظلومين ، فويل ثم ويل للظَّلوم الذى جاوز حده فى ظلمه ، فإن الله مع المظلوم حتى يُرَدّ إليه حَقُّه .

الحب الصادق

ما أكثر الذين يدّعون حُبّ الله ، ويُظهرون ذلك أمام الناس !

ولو خَلَوْا إلى أنفسهم بادروا بالعصيان !!

إن ذلك ليس حباً .. بل هو أدعاء كاذب وخداع ، وما يخدعون إلا أنفسهم ، فإن المحب لمن يحب يطيع ، ومُحال أن تجتمع محبة الله وعصيانه فى قلب مؤمن .

إن نعم الله تغمرنا فى كل يوم ، ولكننا لا نسارع إلى شكره !

إن علينا أن نقف وقفة مع أنفسنا نسائلها : هل **نُحب** الله حقًّا وصدقا ؟!

إن علامة هذا الحب الصادق الطاعة والاستجابة الفورية :

تَعْصِى الإِلهَ وأنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فى الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ ... إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فى كُلِّ يومٍ يَبْتَدِيك بنعمةٍ ... مِنْهُ وَأنْتَ لشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

المفتى المَكِّىّ

جاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى قوله :
بلغنى أن رجلا جاء الشافعى برقعة فيها :

سَلِ المُفْتِىَ المكىَّ من آلِ هاشِمٍ ... إذا اشتَدّ وَجْدٌ بامرئ ماذا يصنع؟

قال : فكتب الشافعى تحته :

يُداوِى هواه ثم يَكْتُمُ وَجْدَهُ ... ويَصْبِرُ فى كلِّ الأمور ويخضَعُ

فأخذها صاحبها وذهب بها :

ثم جاءه وقد كتب تحت هذا البيت الذى هو الجواب :

فكيف يُدَاوِى والْهَوَى قاتِلُ الْفَتَى ... وفى كُلّ يومٍ غُصَّةٌ يَتَجَرَّعُ ؟!

فكتب الشافعى ــ رحمه الله تعالى :

فإنْ هُوَ لَمْ يَصْبر على ما أصابه ... فلَيْسَ شىء سِوَى الموتِ أنْفَعُ !!

[معجم الأدباء لياقوت جزء ١٧ ص ٣٠٦]

وقفة مع النص :

يقول ابن القيم :

وأما الوجد فهو الحب الذى يَتبعه الحزن ، وأكثر ما يستعمل الوجد فى الحزن.

وإطلاق الوجد على مجرد مطلق المحبة غير معروف وإنما يطلق على محبة معها فقد يوجب الحزن !

«وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشىء، وإنما سمى هوى لأنه يهوى بصاحبه !»

وإذا وصلت بصاحب الهوى الحالة إلى تجرع الغصص وذوق المر ، ولم يجد فى الصبر ملاذا فالموت أنفع له !

القَنَاعة والطمع

إذا استغنى الإنسان عما فى أيدى الناس ، وقنع بما أعطاه الله فقد ملك نفسه ولم يعد عبداً لأطماعه وملاذه !

إنه عندئذ يصبح حراً حقاً !

أما العبد فهو الذى استعبدته أطماعه وتخلى عن القناعة ولم يرض بما قسم الله له .

فعلى الإنسان أن يقنع ويرضى بما قسم الله له ولا يقنع ويخضع لشهواته وأطماعه ؛ فلا يشين الإنسان ويعيبه إلا الطمع .

قال الشافعى :

العبدُ حرٌّ إن قَنِعْ والحُرُّ عبدٌ إنْ طمِعْ
فاقنعْ ولا تقنَعْ فلاَ شىءٌ يشينُ سوى الطمعْ

قافية الفاء ف

يحدثنا التاريخ عن نماذج عالية رفيعة من الصداقة الحقة التى ستظل عنواناً على

التضحية والفداء ، والحب والصفاء والأمانة والوفاء ، وصدق الوعد ، والإنصاف المتبادل بين الأصدقاء .

ويسلط الإمام الشافعى الأضواء على مدّعى الصداقة ويرشدنا إلى أنه لا خير فيهم ، وقديما قال أحد الشعراء :

إن أخاك الحق من يسعى معك ومـــن يضر نفسه لينفـــعك
ومن إذا ريب الزمـان صدعك شتت فيك شملــه ليجمـــعك

فمن أولئك الذين لا خير فيهم ، وعلى الدنيا السلام إذا لم تضم إلا أمثالهم ؟

يقول الإمام الشافعى :

١ ــ إِذَا المَـرْءُ لاَ يَرْعَـاكَ إِلاَّ تَكَلُّفاً
فَدَعْــهُ وَلاَ تُكْثِــرْ عَلَيْـــهِ التَّأَسُّفَــا
٢ ــ فَفِى النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفى التَّرْكِ رَاحةٌ
وَفى الْقَـلْبِ صَبْـرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَـوْ جَفَـا
٣ ــ فَمَا كُلُّ مَنْ تَهْـوَاهُ يَهْـوَاكَ قَلْبُـهُ
وَلا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَـــه لَكَ قَدْ صَفَــا
٤ ــ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَفْوُ الْوِدادِ طبيعَةً
فلاَ خَيْـــرَ فى وُدٍّ يَجِـــىءُ تَكَلّفَــــا
٥ ــ وَلا خَيْـرَ فى خِلٍّ يخُـوُنُ خَلِيلَه
وَيَلْقَــاهُ مِنْ بَعْـدِ المَــوَدَّةِ بِالْجَفَــا
٦ ــ ويُنْكِـرُ عَيْشاً قَدْ تقَـادَمَ عَهْــدُهُ
وَيُظْهِــرُ سِراً كَانَ بِالْأَمْسِ قَدْ خَفَــا
٧ ــ سَلاَمٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بهَا
صَدِيـقٌ صَدُوقٌ صَادِقُ الْوَعْـدِ مُنْصِفَا

[جواهر الأدب ص ٧١٩]

إن الإمام الشافعى من أسرة شريفة تتمسك بالقيم ؛ ولهذا نراه يحدثنا دائما عن :

المودة الخالصة ، والصدق ، والوفاء ، والشرف ، والأمانة ، وغيرها من الكلمات التى تكاد تنقرض ، حتى أن شاعرنا العربى القديم يرى المستحيلات ثلاثة : الغول ، والعنقاء ، والخِلّ الوفىّ ، ترى ماذا يقول الشافعى ؟

وقفة مع النص :

وفى الأبيات الأربعة الأولى يحدثنا عن الودّ المتكلف ، والصفاء الخادع والصداقة الزائفة .. إن أمثال هؤلاء غير مأسوف على تركهم بل إن فى تركهم راحة ، وهناك البديل ، وعلينا أن نروض أنفسنا بالصبر .

وهناك حقيقة ينبغى أن نعيها ألا وهى : ليس كل من نهواه يهوانا ولا كل من نصافيه الود يصافينا ، والصفاء والود من عمل القلب فإذا لم يكن طبيعة فلا خير فيمن يتكلفون الوّد ، ويضحكون على غيرهم حتى يحصلوا على مآربهم .

ثم يقول :

لا خير فيمن يخون خليله .

لا خير فيمن ينقلب على صديقه بالعداوة من بعد المودة .

لا خير فيمن ينكر عيشاً قد مضت عليه سنون .

لا خير فيمن يذيع الأسرار الخافية .

لا خير فى هؤلاء جميعاً ولا فى دنيا تجمعهم إذا لم يكن هناك صديق صادق الوعد منصفاً .

ولهذا نراهم يقولون : اختر الصديق قبل الطريق ! ولا عجب إذا لجأ أحدهم إلى الله قائلاً : اللهم احمنى من أصدقائى !!

رأى إمام فى إمام !!

كان لأبى حنيفة النعمان مَنْحىً اجتهادى خاص تمكن بفضله من تزعم مدرسة أهل

الرأى فى العراق ، فركزها ، ووضع لها أسساً واضحة أنضجت الفقه العراقى ، وأوفت به على الغاية .

وبعد حياة حافلة بالعلم وبث المعارف ، والاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعيّة لقى ربه عام ١٥٠ هجرية ودفن ببغداد فى مكان يعرف اليوم بالأعظمية .

وليس هناك من هو أعرف بأبى حنيفة وبمنزلته من الإمام الشافعى عالم قريش الذى ملأ الأرض علما .

إن الأبيات الآتية نقرأ فيها نبل العلماء ، وتواضعهم وصفاء قلوبهم ، وسمو أخلاقهم ، وذكر المرء بما هو أهل له .

وسوف تقول حين تقرؤها : حقا لقد كان للشافعى من كرم الأصل ما يصونه عما يدنس العرض ، وينحرف بصاحبه عن طريق الخلق القويم . ويجعله يعرف للعلماء قدرهم وحقهم عليه ، ألا تراه يقول :

١ ـ لَقَدْ زَانَ البلادَ وَمَنْ عَلَيْهَا   إمَامُ المسْلِمِينَ أَبُو حَنِيفَه

٢ ـ بأَحْكَامٍ وَآثَار وَفِقْهٍ   كآيَاتِ الزَّبُورِ عَلَى الصَّحِيفَه

٣ ـ فَمَا بِالْمَشْرِقَيْنِ لهُ نَظِيرٌ   وَلاَ بِالْمغْرِبَيْنِ وَلاَ بكُوفَه

٤ ـ فرَحْمَةُ رَبِّنا أبداً عَلَيْهِ   مَدَى الْأَيَّامْ مَا قُرِئَتْ صَحِيفَه

إن حياة الأئمة الأربعة مدرسة وعلينا أن نتابع خطاهم ونقرأ ما كتب عنهم .

كيف الوصول ؟!

ما أكثر الذين هاموا بحب الله والوصول إلى رضاه .

إنها مرتبة دونها تضحيات وعقبات فكيف الوصول إلى من نهواه جل فى عُلاه .

ودونه جبال عالية القمم (القلل) .

ودونه أخطار وحُتوف (منايا وموت) .

والرِّجْل حافية .

وليس هناك مَرْكب ..

وهو صفر اليدين .

والطريق مَخُوف .

فكيف الوصول ؟

١ ــ كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا
قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونهُنَّ حُتوفُ

٢ ــ وَالرِّجْلُ حَافِيَةٌ وَلاَ لِى مَرْكَبٌ
وَالْكَفُّ صِفْرٌ وَالطَّرِيقُ مَخُوفُ

وسوف تسألنى عن « سعاد » .. إنها رمز للمحبوب .. والحب الأكبر هو حب الله .. ويا شقاءنا إذا لم يمنحنا ربنا رضاه مهما قدمنا وجاهدنا .

الذُّبَاب والعُقَاب

عجيب أمر الدنيا ، وتفاوت الحظوظ فيها فبينما نجد الطيور الجارحة ذات المخالب القوية وعلى رأسها العُقَاب لا تأكل إلا الجيَف فى الفَلوات والصحَارى إذا بالذباب ــ نموذج الضعف ــ يجنى الشهد !!

العُقاب يأكل الجيف المنتنة ، والذباب يجنى الشهد والعسل ! إنها نظرة فى عالم الطير ، وتأملات إمام من الأئمة ..

إن الشافعى يقول :

أَكَلَ العُقَابُ بقُوَّةٍ جِيَفَ الفَلا وجَنَى الذُّبابُ الشهدَ وهو ضَعِيفُ

ولله فى خلقه شئون !

ألا ترى أن البعوضة تنال من دم الأسد ويعجز عن أن يقتص لنفسه منها

وما بالنا نذهب بعيداً والقرآن يقول فيمن يغترون بقوتهم من الناس : ﴿ **وإن يَسْلُبْهم الذبابُ شيئاً لّا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[الحج — ٧٣]

ألا ما أضعف الأقوياء !!

ذئابٌ فى ثياب متنسِّكين

ما أكثر المخادعين ! الذين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم .

وكثيراً ما نرى الثعالب تظهر فى شعار الواعظين ، وتمشى فى الأرض تهدى وتسب الماكرينَ .

فينبغى أن نفتح عيوننا لألاعيبهم .

مخطىء من ظن يومــــاً أن للثعـــلب دينـــــا

إن علينا أن نتركهم .

وهناك ذئاب بشرية تتظاهر بالطيبة حتى إذا خَلَوْا إلى أنفسهم ظهروا على حقيقتهم ، وراحوا يأكلون أموال الناس بالباطل ، وكأنهم ذئاب خرجت من حقافها (جحورها فى الرمل) .

وكثيراً ما ائتمنا أمثال هؤلاء المتظاهرين بالعفة والتنسك والعبادة ، فلما أتيحت لهم الفرصة انقضوا فى غير رحمة على الأموال والأعراض !

حدث عبد الله بن جعفر ، قال : حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو حاتم ، حدثنا حرملة قال : سمعت الشافعى يقول :

١ ــ وَدَعِ الذَّينَ إذَا أتَوك تَنسَّكُوا
وَإذَا خَلَــوْا فَهُــمُ ذِئَـــابُ خِرَافِ

[الرازى ــ آداب الشافعى]

فَضْلُ التغرّب

قديما قال شاعرنا العربى :

ولا يُقيِمُ عَلَـى ضَيْـمٍ يِرادُ به إلاَّ الأذَلَّانِ : عَيْرُ الحَىِّ والوَتِـدُ

يُضْرب الحِمار ويهان ؛ فيرضى بالذل ، ويقيم على الضَّيم !

ويُضْرب الوَتِد فوق أمِّ رأسِه ؛ ليزداد تمكنا فى الأرض التى دُق فيها !

ويقيم على الضّيم .

وسوف يُسأل المستضعفون الراضون بالضيم والذل يوم القيامة :

فيم كنتم ؟

قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض !!

فيقال لهم :

ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟

والشافعى يدعو إلى الارتحال من أرض يضام فيها الإنسان ويُذَلّ . ويضرِبُ مثلا بالعنبر الخام وبالكحل كيف كانا قبل أن يتَغَرّبَا عن موطنهما ؟ وكيف أصبحا بعد التغرب ؟

إن العنبر قبل أن تستخلص منه الرائحة الزكية لم يكن شيئا مذكورا ، بل كان أشبه بروث الحيوانات ، والكحل لم يكن إلا حجرا من الأحجار ، فأصبح العنبر يتسابق الجميع إلى حمله على الأعناق ، أما الكحل فيحمل فى العيون ! وذلك لما تغربا !

ارْحَلْ بِنَفْسِكَ مِنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا
وَلاَ تَكُنْ مِنْ فِرَاقِ لأَهْلِ فى حُرَقِ
فَالْعَنْبَر الْخَامُ رَوْثٌ فى مَواطِنِه
وَفى التَّغَرُّب مَحْمُولٌ عَلَى الْعُنُقِ

وَالكُحْلُ نَوْعُ مِنَ الْأَحْجَـارِ تَنْظُـرُهُ
فى أرْضِهِ وَهْوِ مَرْمِىٌّ عَلَى الطُّـرُقِ
لَمَّـا تَغَـرَّبَ حَازَ الـفَضْلَ أَجْمَعَـهُ
فَصَارَ يُحْمَـلُ بَيْـنَ الْجَفْنِ وَالْحَـدَقِ

أيهما أَلَــذّ ؟

للناس فيما يعشقون مذاهب !

منهم من يجد لذته فى طلب العلم والتأليف والتنقيح . ومنهم من يلَذّ له وصل غانية وطيب عِناق !

ومنهم من لا يعرف النوم ، فليس لمن رام العلم مضجع ! ومنهم من يبيت ليله لا يفكر فى شيء، ولا يشغله شيء ينعم بلذيذ النوم والكسل ! وإن فاته قطار العلم !!

فهل يستوى الساهرون فى طلب العلم والنائمون عنه ؟

يقول الشافعى :

١ ـ سَهَرِى لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لِى
مِنْ وَصْلِ غَانِيَـةٍ وَطِـيبِ عِنَـاقِ
٢ ـ وَصَرِيرُ أَقْلَامِى عَلَى صَفَحَاتِها
أحلَـى مِنَ الـدَّوْكاءِ وَالـعُشَّاقِ
٣ ـ وَأَلَـذُّ مِنْ نَقْرِ الفتـاة لِدُفِّهَـا
نَقْـرِى لِأُلقِـى الرَّمْـلَ عَنْ أَوْرَاقِى
٤ ـ وَتَمَايُلِى طَرَبـاً لِحَـلِّ عَوِيصَةٍ
فى الـدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَـة سَاقِ

٥ ـ وَأبِيتُ سهرَانَ الدُّجى وَتَبيتُهُ
نَوْماً وَتَبْغِى بَعْدَ ذَاكَ لِحَاقِى ؟!

إن هذا لن يكون .. فلا يستوى من سهر الليالى ومن نامها !

ومن أجل هذا نرى الشافعى يجد لذة فى تنقيح الكتب وتهذيبها وإصلاحها ، أكثر من معاشرة الجميلات الغانيات اللاتى استغنين بجمالهن عن الزينة .

وإن صرير أقلامه وأصواتها فوق صفحات كتبه وهو يصنف ويؤلف أحب إليه وأحلى من أصوات العشاق عندما يكون لقاء واختلاط وإن نقره على الأوراق لإزالة ما علق بها من أتربة ألذ وأحلى عنده من نقر الفتاة لدُفها (آلة طرب ينقر عليها) وإن تمايله فى الدرس ـ كما يفعل الفقهاء ـ ذات اليمين وذات الشمال أو إلى الأمام والخلف لحل مسألة عويصة أشهى من الخمر عند شاربيها .

دليل على القضاء وحكمه

الناس صنفان : مجدود صاحب جَدٍّ وحظ ، ومحروم، وقديما كنا نحفظ بيتا من لامية الطغرائى يقول :

الجَدّ فى الجِدّ والحِرمان فى الكسل
فانصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأمَلِ

إن الجَدَّ هو الحظ ، ولا يأتى الحظُّ من فراغ ولكنه يصاحب الجِدّ والتعب . ويقال لصاحب الحظ مَجْدُود .

وكما أن لكل مجتهد نصيب ، فإن الحرمان فى الكسل !

فالسماء لا تمطر ذهباً أو فضة للكُسالى الخاملين . ولكن الدنيا قد تقبل على بعض العاملين فينالون منها حظاً وافراً ومكانة مرموقة ! فإذا صادفك من أقبلت عليه الدنيا وأسعَده الحظ ، فلا تعجب وقل :

مَلِكُ الملـــــوكِ إذا وَهَب   لا تَسْأَلَـــــنَّ عن السبب

إن الإمام يقول :

١ ــ فَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَجْدُوداً حَوَى
عُوداً فأَثمَـــر فى يَدَيْـــهِ فصَدِّقِ

٢ ــ وَإِذَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَحْرُوماً أَتَى
مَاءً لِيَشْرَبَـــهُ فغَـــاضَ فَحَقِّـــقِ

٣ ــ لَوْ كانَ بِالْحِيَلِ الغنى لوَجدْتَنِى
بِنُجُـومِ أقطـارِ السَّمـاء تَعَلُّقِـــى

٤ ــ لكِنَّ مَنْ رُزِقَ الْحِجَا حُرِمَ الغِنى
ضِدَّان مُفْتَرِقَـــان أىَّ تَفَـــرُّقِ

٥ ــ وَأَحَقُّ خلْقِ اللهِ بِالْهَمِّ امْـرُؤٌ
ذُو هِمَّـــةٍ يُبْلَـــى بِرِزْقٍ ضَيِّـــقِ

٦ ــ وَمِنَ الدليل عَلَى القَضَاء وحكْمِهِ
بُؤْسُ اللَّبيبِ ، وطِيبُ عَيْشِ الأحْمَقِ

٧ ــ إِنَّ الذى رُزِقَ اليَسارَ فَلَم يَنَلْ
أجـراً وَلاَ حَمْـداً لغيْـرُ مُوفَّـــقِ

٨ ــ وَالجَدُّ يُدْنِى كُلَّ أَمـرٍ شاسعٍ
والجَـد يَفْتَـحُ كلَّ بَابٍ مُغلَـــقِ

إن إمامنا يرى أن الحظ له دخل كبير فى حياتنا ، لكنه ينبهنا إلى وجوب النزول عند حكم القضاء والرضا به .

حفظ الأسرار

لكل إنسان منا أسراره الخاصة التى يؤذيه أن يطلع عليها غيره ، وبخاصة أعداؤه

الذين يريدون النّيْلَ مِنْه ، وإذاعة ما خفى من أمره .

وقلوبنا مستودع أسرارنا ، إن اتسعت لها ظلت سرا بيننا وبين ربنا عالم الأسرار علم اليقين . والله حليم ستار !

وإن ضاقت صدورنا بأسرارنا أو أسرار غيرنا ، أصبحت على كل لسان ! ومن الحماقة أن نلوم غيرنا على إذاعتها ؛ لأننا لم نستطع أن نحتفظ بها !

وفى الحكم :

« سُّرك أسيرُك ، فإذا تكلمت به فأنت أسيرُه »

ولقد سأل أحد رجال الدين قائداً من قواد الحرب العظمى عن سرٍّ حربى . فتظاهر القائد بالتفكير ثم قال له :

لو أخبرتك بالسر ، هل تستطيع أن تحتفظ به ولا تذيعه ؟

فأجاب رجل الدين : نعم .

فقال القائد على الفور : وأنا الآخر أستطيع أن أحتفظ به .

ويحدثنا الإمام الشافعى عن تجربته فيقول :

١ ـــ إذا المرءُ أفشَى سِرَّهُ بِلسَانِـــهِ
وَلاَمَ عَليـــهِ غَيْـرَهُ فهــو أَحْمَـــقُ

٢ ـــ إذا ضَاقَ صَدْرُ المَرءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِه
فصَدْرُ الـذى يُسْتودَعُ السرَّ أَضيَـــقُ

مـاذا بقـى من أخـلاق النـاس ؟!

لقد فطر الله الناس وطبعهم على الخير .

وفى التاريخ الإسلامى نماذج عُليْا للأخلاق الرفيعة والقيم النبيلة .

وعلى مرّ الأيام تفسد الطباع ، وتنقرض صفات وقيم ! وعندما تختلط بالناس لا نجد إلا المكر ، والتملق .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويـروغ منك كما يروغ الثعـلب

إنهم زهر حين نراهم ونتأملهم ونرمقهم ، فإذا جربناهم وخالطناهم واحتككنا بهم لم نجد فيهم إلا شوكا .

فكيف نعاملهم إن دعت الضرورة إلى معايشتهم ومعاشرتهم والتعامل معهم ؟

تقول الأمثال : « من لم يتذأب أكلته الذئاب » !

ويقولون : « عاشر الذئاب على أن تكون فأسك فى يدك » !

ويقول الإمام الشافعى : « كن جحيما لعل الشوك يحترق » !

ومن قبل قالوا : « إن أنت أكرمت اللئيم تمرد » !

واجه أمثال أولئك اللئام ولسان حالك يقول : « إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا » .

وتذكر قول الشافعى :

لَم يَبْقَ فى النَّاسِ إلا المَكْرُ وَالمَلَـقُ
شَوْكٌ ، إذا لمسُوا ، زهْرٌ إذا رَمقُـوا
فإنْ دَعَـتْكَ ضَرورَاتٌ لِعشْرتِهـمِ
فَكـنْ جَحيمَا لعـلَّ الشَّوكَ يَحْتَـرِقُ

مشـاعر الغـريب !

عاش الشافعى الغربة فى العراق .. واليمن .. ومصر .. وكثيراً ما يَحنُّ الغريبُ إلى موطنه ، ويخفق قلبُه شوقاً إلى لقاء الأهل ، ألم يقل شاعرنا العربى :

لا يعرفُ الشوقَ إلا من يُكابِـدُه ولا الصبابةَ إلاّ مَن يُعانيها ؟!

والغريب له مشاعره وأحاسيسه :.

إنه **يخاف** كأنه سارق !

ويُرى **خاضعاً** كأنه مَدين أثْقَلَه الدّيْن ، والدّيْن هم بالليل وذل بالنهار .

ويُرى **ذليلاً** كأنه أسير أوثقوه وقيدوه بالحبال والسلاسل .

وتظل هذه المشاعر تستولى عليه حتى يتذكرَ أهلَه وبلادَه ، فيخفق فؤاده كجناح طير خافق ، وتهب على قلبه نسمات حلوة وذكريات جميلة تنسيه ما هو فيه ، وما يعانيه !

إن إمامنا يقول :

إنَّ الغَريبَ لَهُ مَخافَـــةُ سَارِقٍ ... وَخُضُوعُ مَدْيونٍ وذِلَّةُ مُوثَــقِ

فإذا تَذَكَّــرَ أهلَــهُ وبِــــلادَهُ ... فَفُؤادُهُ كَجَنَاحِ طَيْــرٍ خَافِــقِ

وأراك تقول :

يا بلادى أنت قُرَّةُ عينى !!

التوكّل على الله

هناك قوم يخطئون فهم التوكل على الله ؛ فهم لا يعملون ويقولون : توكلنا على الله .

ومنهم الطالب الذى لا يذاكر ، ويقول : توكلت على الله .

ومنهم المسافر الذى لا يتخذ الوسائل ولكنه يخاطر ويقول : توكلت على الله .

ومنهم الزارع المهمل الذى لا يسقى زرعه ولا يحسن رعايته ويقول : توكلت على الله !!

هؤلاء كلهم اتكاليون متواكلون وليسوا بمتوكّلين !

إن التّوكُّل الحَقّ على الله اتخاذ للأسباب ، وسعى فى الأرض ، وبذل للجهد مع طلب التوفيق من الله ؛ فالله هو الرزّاق الذى قسم رزق الخلائق ، وما دام الإنسانُ قد أدّى واجبه فلْيُحسن الظن بربّه فإنه لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها ، وَلا ينبغى أن تذهب النفس حسرات أسفاً على ما فات !

وإليك ما قاله الشافعى :

١ ــ تَوكلْتُ فى رِزْقى عَلَى اللهِ خَالقى
وَأَيقَـــــــنْتُ أنَّ اللهَ لا شَكَّ رَازِقى

٢ ــ وَمَايَكُ مِنْ رِزْقى فَلَيْسَ يَفوتُنى
وَلَـوْ كانَ فى قَاعِ البِحَــار العَوامِــقِ

٣ ــ سَيأْتى بِهِ اللهُ العــظيم بفَضْلِــهِ
وَلَوْ لم يَكُنْ مِنى اللسَانُ بِنَاطِقِ

٤ ــ فَفى أى شيءٍ تَذْهبُ النَفْسُ حَسْرَةً
وَقَـدْ قَسَمَ الرَّحْمَـنُ رِزْقَ الْخـلائِقِ؟!

ومن طريف ما جاء فى كتاب « ثمرات الأوراق » أن شاعرا وفد على هشام بن عبد الملك فى جماعة من الشعراء فقال له :

ألست القائل :

لقد علمت وما الإشراف من خُلُقِى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعــى له فيعَنِّينــى تَطَلُّبُــــه ... ولـو قعـدت أتــانى لا يُعَنِّيــى[1]

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره متوجهاً إلى الحجاز .

فلما كان الليل تذكر هشام وهو فى فراشه أنه رده خائباً ، وهو الشاعر الذى معه لسانه ، فلما أصبح سأل عنه ؛ فأخبر بانصرافه ؛ فقال : ليعلم أن الرزق سوف يأتيه ، وأرسل إليه ألفى دينار مع رجل من رجاله ، فأعطاه المال : فقال له : أبلغ أمير المؤمنين أنى سعيت فلم أظفر بحاجتى ، ورجعت إلى بيتى فأتانى رزقى !

هل يرتبط الرزق بالعقل ؟

(١) الإشراف : التطلع إلى المال والطمع فيه ، ويعنّينى يجهدنى .

نرى البهائم ترزق ، ولا عقل لها .

ونرى من العباقرة من عاش مُرّ الحياة وذلّها !

فهل الأرزاق تجرى على العقل والحجا ؟

يقول شاعر عربى :

لو كانت الأرزاق تجرى على الحِجا   هلكن إذن من جَهْلهنّ البهائم !

وقد يقف العاقل وقفةً مع نفسه ، ويطيل التأمل فيمن حوله ويخرج من تجربته بحقيقة نعيشها نحن ونلمسها ، وفى معرفتها والإحاطة بها ما يريح النفس من عناء التفكير .

تُرى ماذا يقول الشافعى ؟

لو كُنْتَ بالعَقْلِ تُعْطى ماتُريدُ إذَن
لما ظَفِرْتَ مِنَ الدُّنْيا بِمَرْزوقِ
رُزِقْتَ مَالاً على جَهْلٍ فَعِشْتَ به
فَلَسْتَ أوَّلَ مَجْنُونٍ ومَرْزوقِ !!

ولله فى خلقه حكم !

وجَلَّ من قسّم الحظوظ !

العلم رفيق نافع

قالوا : « العلم فى الصدور لا فى السطور » !

والعالم الحق هو الذى يملأ العلم قلبه لا خزائن كتبه .

ولا فائدة فى علم لا يستثمره صاحبه فى مواقف الحياة أنّى سار وحيثما اتجه .

فلقد ظل أحد المشايخ القدامى يدرس لطلابه كيفية الحج ، وأن تحية المسجد الحرام تختلف عن تحية المساجد كلها .

فنحن نحيى المساجد بصلاة ركعتين .

ونحيى المسجد الحرام بالطواف حول الكعبة المشرفة . لكن شيخنا حين أتيح له الحج ودخل المسجد الحرام ، وقف يصلى ركعتين تحية المسجد ، فسمع طفلة صغيرة تقول له : تحيةُ مسجدنا الطوافُ .

والشافعى من العلماء الذين جعلوا قلوبهم للعلم وعاء فهو يقول كما روى عنه الربيع بن سليمان فى أدب الدنيا والدين ، ومنهاج اليقين :

عِلْمِى مَعِى حَيْثُما يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِى
قَلْبى وَعاءٌ لَه لاَ بَطْنُ صُنْدُوقِ
إن كُنْتُ فى البيتِ كَانَ العِلْم فيهِ مَعِى
أو كُنْتُ فى السُّوقِ كان العِلْم فى السُّوقِ

وأراك تقول : لاقيمة للعلم إذا لم نطبقه فى كل مجالات الحياة ، ولا قيمة للتدين إذا لم يصبح سلوكاً !

الصديق الجاهل !

قديماً قالوا : عدو عاقل ، خير من صديق جاهل !

وذلك لأن العاقل يحسن التصرف ، أما الجاهل فقد يضرك من حيث يريد أن ينفعك .

إن « الدُّبة » التى أرادت أن تَذُبَّ الذُّباب عن وجه صاحبها لكيلا يؤذيه وهو نائم ، فألقت حجراً ، فأصاب الحجر صاحبها فقتله ــ خير مثل لما يريد الشافعى أن يقوله فى البيت الآتى :

رام نفعاً فضَرّ من غيرِ قَصدٍ ومن البِرّ ما يكون عُقوقَا

[وفيات الأعيان ــ دائرة معارف القرن العشرين]

ومن الناس من يروم ويقصد أن ينفعك ــ كما يصّور له جهله ــ فيؤذيك ؛ لأنه

لا يكاد يفرق بين ما ينفع وما يضر .

وقد يخيل إلىّ بعضهم أنه يبر والديه ويحسن إليهما حين يقدم لهما ما يشتهيانه من الممنوعات ، ولو فكر لعلم أنه كان مسيئاً إليهما وعاقاً لهما فمن البِرّ ما يكون عُقُوقاً .

وعلينا أن نحسن التصرف ، ونعرف جوانب الخير فنفعلها ، والشر فنتركها .

قافية الكاف ك

القناعة رأس الغنى

القناعة رأس الغِنى .. فالغِنى غنى النفس عما فى أيدى الناس !

ومن يرى هذا ويؤمن به يتمسك بأذيال القناعة ، فلا تراه على باب فلان من الناس ، ولا ينهمك بأمور فلان من الناس ، وكيف ذلك وقد استغنى عنهم ؛ فصار غنياً بلا درهم ، يمر عليهم شبه ملك .

إنه التعفف الذى مدحه القرآن :

﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف** ﴾ البقرة — ٢٧٣]

يقول إمامنا :

رَأيْتُ القنَاعَـةَ رَأْسَ الغنَـى ... فِصرتُ بأَذْيَالِهَـا مُمْـتَسِكْ

فلا ذا يَرانى عَلَـى بَابِـه ... ولا ذا يَرانى بهِ مُنْهَـمِك

فصرتُ غنِيًّـا بلا دِرْهَـم ... أمرُّ عَلَى النَّـاسِ شِبْـهَ الملك

من تجارب الإمام الشافعى

يرى إمامنا أن يعتمد الإنسان فى حل أموره على نفسه فهو أدرى الناس بشأنه ، فصاحب البيت أدرى بما فيه .

وليس من عاين المشكلة كمن عاناها !

ومن تجاربه : أنه ينبغى عند طلب حاجة أن نقصد من يعرفون لنا قدرنا ويعترفون بفضلنا .

إنه يقول :

١ ـ مَاحكَّ جِلدَك مثلُ ظُفرِك فتـــوَلَّ أنتَ جميـــعَ أمـــرك

٢ ـ وإذا قصدتَ لحاجةٍ فاقصـــــــــدْ لمعتـــــرفٍ بفضلِك

[شذرات الذهب]

وقفة متأملة :

إلى الكسالى الخاملين .. وإلى القاعدين ، وغيرهم يعمل من أجلهم .. اعتمدوا على أنفسكم .. وجربوا مرة بعد أخرى .. فإذا عجزتم فلا تلجئوا إلا إلى من يعرف لكم قدركم ويعترف بفضلكم ، حتى يأخذوا بأيديكم ، ويعملوا على إنجاح مساعيكم .

تولوا أموركم الخاصةَ بكم فلقد رأينا دول الغرب ـ أخيراً ـ ترفع شعاراً هو : « اخدم نفسك بنفسك » ورحنا نستورده منهم فى المطاعم والأسواق التجارية . أليست هذه بضاعتنا ردت إلينا ؟!

فتنة عظيمة !!

يرى الشافعى أن وجود صنفين من الناس مصدر شر خطير وفتنة كبرى عظيمة لمن يتمسك بهما فى دينه .

أما أولهما ـ فعالم متهتك لا يعمل بعلمه ويجاهر بالمعاصى .. وأما الثانى ـ فجاهل مُتَنَسِّك .

وعلينا ألا نخدعَ بهما وبأمثالهما فى ديننا ، وأن نتقى الله عندما نصبح فى موضع القدوة ، فلا نأمر بالخير بينما نتركه ، ولا ننهى عن الشر بينما نفعله !

وقد أنشد الشافعى — رضى الله عنه — فى فساد العالم المتهتك والجاهل المتنسك قوله :

١ — فساد كبير عالم متهتك وأكبر منه جاهل متنسك
٢ — همَا فتنة فى العالمين عظيمة لمن بهما فى دينه يتمسك

وكم أضيرت أمتنا بأمثال هؤلاء على مدى عصورها فكانوا معاول هدم ، وعوامل تخلف !

فليحذر شرهم أولئك الذين يبغون النجاة عند ربهم والسلامة يوم القيامة !

قافية اللام ل

المثل الأعلى للفقيه والرئيس والغنى

إنهم ثلاثة : إذا صلحوا صلحت الدنيا ، وإذا فسدوا فسدت الدنيا وساءت أحوال الناس :

أما أولهم فالفقيه . والفقيه من تفقه فى دين الله ووطن نفسه لخدمة دينه .

ويرى الشافعى أن الفقيه الحق بفعله لا بنطقه ومقاله؛ فالإيمان عقيدة وعمل، ولا خير فى قول لا يتبعه عمل !

والثانى الرئيس : إن الرئيس بأخلاقه .. بسلوكه ، فالملك خير الملوك من ملك الناس وامتلك نفسه ، ومن يخشى الله ، ويخشى الناس بأسه . إنه بعدله .. بسيرته ، لا بقومه ، وحزبه ، ورجاله .. فما أضيع الذين يعتمدون على رجالهم وحزبهم دون أن يعملوا حساباً لسلوكياتهم !

أما الثالث — فهو الغنى — والغنىّ بحاله .. بما يتحلى به من الجود والبذل ، وكرم النفس ، والبعد عن الجشع ، والتفاخر ، والتباهى . فليس الغنىّ بالملك والمال

وإنما بالبذل والعطاء والنوال .

وهكذا يرى الشافعى ما ينبغى أن يكون عليه كل من هؤلاء الثلاثة :

١ ــ إنَّ الفَقيهَ هو الفَقيهُ بفعْلِهِ ليْسَ الفَقيــهُ بنُطقِــه وَمَقالِــهِ

٢ ــ وَكَذَاالرَّئيسُ هوالرَّئيسُ بخُلْقِهِ ليس الرئيس بقومه وَرجَالِــهِ

٣ ــ وكَذَا الغنىُّ هو الغنىُّ بحَالِهِ ليس الغنــىُّ بمُلْكِــهِ وبمــالِهِ

صُنِ النفس عما يشينها

نفسك التى بين جنبيك أمانة فى يديك أودعك الله إياها وكرمها وقال لنا : ﴿ **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها** ﴾ [الشمس ــ ٩ ، ١٠]

والإمام الشافعى يطلب من كل مؤمن ما يأتى :

أن يصون نفسه ، ويحملها على ما يزينها ويزكيها .

ويحدثنا عن أثر ذلك فى حياة من يعمل بهذه النصيحة ثم ينتقل بنا إلى ما ينبغى أن نواجه به الناس حتى ولو جفا خليل ، أو تخلت عنا الأيام .

ثم يرسم لنا الطريق : ماذا نفعل إن ضاق رزق اليوم ؟ ولماذا ؟ ويبدى رأيه فى « الإمّعة » الذى يميل مع الريح وليس له مبدأ ويأكل على كل مائدة ، وينتسب إلى كل حزب ، ويهتف لكل حاكم .

ثم يقرر رأيه فيما يراه من الإخوان حوله . إنه يقول :

١ ــ صُنِ النَّفس واحْملْهَا عَلى مَا يزينُها
تَعِشْ سَالماً والقــولُ فيكَ جَميـــلُ

٢ ــ ولا تُولِيَنَّ النَّــاس إلاَّ تجَمُّــلاً
نَبا بكَ دَهْــرٌ ، أو جَفَــاكَ خليـــلُ

٣ ــ وإنْ ضَاقَ رِزْقُ اليومِ فاصبِرْ إلى غَدٍ
عَسى نَكَبَــاتُ الدَّهْـــرِ عَنْكَ تَزولُ

٤ — وَلا خَيْرَ فى وُدِّ امرئٍ مُتلوِّنٍ
إذَا الرِّيحُ مالَتْ ، مَالَ حيْثُ تَميلُ

٥ — ومَا أكثرَ الإخْوانَ حِينَ تَعُدّهُمْ
وَلكِنَّهُم فى النَّائِبَاتِ قلِيلُ

إن ذلك هو حال الدنيا ؛ فلا تبتئس بما يكون منهم وقت الشدة !!

تواضع العلماء

خزائن العلم لا تنفد ، ومن اعتقد أنه علم فقد جهل !

وكلما قرأ الإنسان جديداً أحس بما كان عليه من نقص ، وراح يستزيد من العلم ليكمل نقصه ، وهكذا يكون شأن العلماء المتواضعين ؛ فهم أعرف الناس بأقدارهم ، والدهر خير مؤدب ، ومن لم يؤدبه أبواه أدبته الأيام والليالى ، أتدرى ماذا يقول الإمام الشافعى ؟

كلَّما أَدَّبَنِى الدّهْرُ ... أَرَانِى نَقْصَ عَقْلِى
وإذا ما ازدَدْت عِلْماً ... زادنِى عِلْماً بِجَهْلِى

دعوة إلى التعلم

وهذه الأبيات الثلاثة دعوة موجهة إلى كل مسلم أن يتعلم ، فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وبالجهل يصير الكبير صغيراً مهما كانت حوله جيوش كثيفة .

وبالعلم يصبح الصغير كبيراً فى أعين المجامع والمحافل من الناس . إنه يقول فى هذه

الدعوة :

١ ــ تَعلَّمْ فَلْيْسَ المرءُ يُولَدُ عَالماً
وَلَيسَ أخو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جاَهِـــلُ

٢ ــ وإنَّ كَبِيرَ القَوْمِ لاعلْمَ عِنْـــدَهُ
صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عَليــهِ الجحَافِــلُ

٣ ــ وإنَّ صَغيرَ القومِ إنْ كَانَ عَالِماً
كَبيــرٌ إذا رُدَّتْ إليـــهِ المحَافِــلُ

[عين الأدب والسياسة]

وإذا كانت جيوش الأمية تزحف على البلاد وتزداد نسبتها عاماً بعد عام، فإن فى ذلك الخطورة كل الخطورة ! فياويل أمة يسود الجهل فيها !

إدراك الحكمة ونيل العلم

مَن ذلك الذى يستطيع أن يدرك الحكمة ؟

ومن هذا الذى يمكنه أن ينال العلم ؟

وهل لمن بُلى بالفقرَ والعيال منهما نصيب ؟

إن كنت حريصاً على معرفة الإجابة فتعال نقرأ ما قاله الشافعى :

١ ــ لا يُدركُ الحِكْمةَ مَنْ عُمْرُهُ يَكــدَحُ فى مَصْلَحــةِ الأهــلِ

٢ ــ ولا يَنالُ العِلْمَ إلاَّ فتــى خالٍ مِنَ الأَفْكــارِ وَالشُّغــلِ

٣ ــ لَوْ أنَّ لُقْمانَ الْحَكيمَ الذى سَارَتْ بِهِ الرُّكبــانُ بالــفَضْلِ

٤ ــ بُلى بِفقْرٍ وَعِيَالٍ لمَـــا فرَّقَ بَيْــنَ التِّبــنِ والبَقْــلِ

[منهاج اليقين والكشكول]

إن الحكمة تطلق على كل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل ، والحكيم ذو الحكمة ، أو من يحكم الأشياء ويتقنها ، ولقد قالوا :

اعط العلم كلك يعطك بعضه

واعطه بعضك لا يعطيك شيئاً

ومن هنا كان التفرغ والهجرة فى طلب الحكمة وإدراك العلوم .

إياك وأبوابَ الملوك والحكام !

قالوا : السلطان من لا يعرف باب السلطان .

ويحدثنا القرآن عن رأى ملكة سبأ فى الملوك :

﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها** ﴾ [٣٤/النمل]

والملك : ذو السلطان والسيادة على فريق من الناس . وجمع الملك ملوك .

والفساد : الجدب فى البر ، والقحط فى البحر ، ونقيض الصلاح .

وللإمام الشافعى تجربته فى هذا المجال . وإن كان من الملوك من عرف الله وخافه .

تُرى بم وصفهم ؟ وعم ينهانا ؟ ولماذا يقطع على الآمل فيهم أمله ؟ وبم يصون الإنسان كرامته ؟

تجد الإجابة الشافية عن كل هذه التساؤلات فى أبيات ثلاثة للشافعى :

١ ــ إنَّ المُلوكَ بَلاَءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا
فَلا يَكُنْ لَكَ فى أبْوَابِهِمْ ظِلٌّ

٢ ــ مَاذَا تُؤَمِّلُ مِنْ قَوْمٍ إذَا غَضِبُوا
جَارُوا عَلَيْكَ وَإنْ أرْضيتَهُمْ مَلّوا

٣ ــ فاسْتَغْنِ باللهِ عَنْ أبْوَابِهِمْ كَرَماً
إنَّ الوقُوفَ عَلَى أبْوَابِهِمْ ذُلّ

وأراك تقول : لا أمل فى معرفة من إذا غضب جار وظلم ، ومن إذا رضى ملّ وسئم !

إن الوقوف على أبوابهم ذل ، أما باب ملك الملوك ففيه متسع للجميع حيث لا ظلم ولا ملل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾

حُبّ أبى بكر وعلىّ رضى الله عنهما

عجيب أمر خصوم الشافعى فى اليمن !

لقد دفعتهم الخصومة إلى التآمر ضده ، فاتهموه بالتشيّع والرفض !

وهنا يرد عليهم ويرميهم بالجهل كاشفاً عن رأيه وعقيدته .

١ ــ إذا نحن فَضَّلْنا علياً فإننا
روافِضُ بالتفضيلِ عند ذوى الجهل

٢ ــ وفَضْلُ أبى بكر إذا ما ذكرته
رُميتُ بنَصْبٍ عند ذِكْرِىَ للفضْلِ

٣ ــ فلا زلت ذا رفضٍ ونصبٍ. كلاهما
بِحُبِّيهِمَا حَتَّى أُوَسَّدَ فى الرّمْلِ

إن خصومه ــ بجهلهم ــ يأبون إلا اتهامه، فإن فضّل عليا رموه بالرفض، وإن فضّل أبا بكر رموه بالنصب .

وهذا دأبهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب وسيظل موقفهم حتى يوسد فى القبر ، فلن ينزل عند رأيهم ولن يوافق هواهم .

آل بيت رسول الله ﷺ

فتح الشافعى عينيه على الأرض المقدسة منزل الوحى حيث مبعث رسول الله ﷺ

وهو يهدى بخطاه الحائرين يوم أن كانت الأرض ظلاما حوله .

وفى المدينة المنورة تلقى العلم على يد الإمام مالك ، حيث كانت المدينة مهد العلم ، وموطن عدد كبير من التابعين ، وقبلة علماء المسلمين ، ومُهاجَر رسول الله ﷺ ومثواه ، ومنزل الوحى وملتقاه ، فلا عجب أن يرى حب آل البيت فرضاً عليه .

ألم يقل الله :

﴿ **قل إن كان آباؤكم .... أحبّ إليكم من الله ورسوله .. فتربصوا** ﴾[التوبة : ٢٤]

﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾[الأحزاب : ٣٣]

ألم يرو البخارى .. أنهم قالوا يا رسولَ الله كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : « **اللهم صلّ على محمّدٍ وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد** » .

إنه يناجيهم قائلا :

١ ــ يا آلَ بيتِ رسولِ الله حُبّكُم
فرض من الله فى القرآن أنزله
٢ ــ يكفيكم من عظيمِ الفخرِ أنكُمُ
مَن لّم يُصَلِّ عليكُمُ لا صلاةَ له

ما أحدثه الناسُ من بدع !

جاء فى البداية والنهاية لابن كثير :

قال الربيع : سمعت الشافعى يقول :

أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ :

أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على .

وعن الربيع قال :
أنشدنى الشافعى :

١ ــ لم يفتَأ الناسُ حتى أحدثوا بِدَعاً
فى الدين بالرّأىِ لم يُبْعثْ بها الرُّسُلُ
٢ ــ حَتَّى استَخفّ بِحَقِّ الله أكْثَرُهُمْ
وفى الذى حَمَلُوا مِنْ حَقِّهِ شُغُل

[البداية والنهاية]

عُلُوّ الذكر

الناس صِنفان : شقىّ وسعيد .

نرى السعيد يحظى بما يريد ، ويعلو شأنه وذكره ويصبح بين الناس الرمز والنموذج وإليه تنسب كل الفضائل حتى يزين بالذى لم يفعل !

ويا ويل الشقىّ مما ينسبه الناس إليه ، كل الجرائم والشرور تنسب إليه ، فيسوء ذكره ، ويصبح النموذج الكامل للشر ليكون فى مقابلة نموذج الخير .

وهكذا يكون علو الذكر :

١ ـ المرءُ يَحْظَى ثُمَّ يعْلُو ذِكْرُهُ
حَتَّى يُزَيَّن بالذى لَمْ يَفْعَلِ
٢ ــ وتَرَى الشَّقَىَّ إذَا تَكَامَلَ عيبُهُ
يَشْقَى وَيُنْحَلُ كُلَّ مَا لَمْ يَعْمَلِ

ويروى البيت الثانى هكذا :

وترى الغَنِىَّ إذا تكامل ماله يُخْشَى ويُنْحَلُ كلّ ما لم يَعْملِ

المعاملة بالمثل

يقولون : إن الحماقة أعيت من يداويها ، وكيف يُدَاوَى من قَلّ عقله وساء تصرفه ؟!

والحل المعاملة بالمثل ، فهناك شاعر عربى يقول :

ولما رأيتُ الجهل فى الناس فاشياً　　تجاهلت حتى ظُنّ أنّى جاهل

وقد جرت بين الشافعى وبعض أصحابه مَجَانة : (قلة حياء) وذلك عند قدومه من مكة إلى مصر فخرج إخوان له يتلقونه ، فإذا بأحدهم يؤذيه بكلمة فيقول :

١ ــ وأنزَلَنِى طُولُ النّوَى دَارَ غُربةٍ　　إذا شئتُ لاقيتُ امرأً لا أُشَاكِلُه

٢ ــ أحامِقُه حتى يقالَ سجيةٌ　　ولو كان ذا عقلٍ لكنت أعاقله

[معجم الأدباء ، وحلية الأولياء]

وأراك تقول :

فى الغُربة وطول البعد عن الأهل والنَوى يتعرض الإنسان للقاء من هم ليسوا على شاكلته ؛ فيضطر إلى محامقتهم (مقابلة حماقتهم بمثلها) . أما من كان عاقلا فيعاقله .

وأقول لك : إن البيت يُروى هكذا :

تحملته حتى يقالَ سجيةٌ　　ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

حاسِدُ النعمة

كثيراً ما يتعرض الفقهاء والعلماء لحاسدى ما هم فيه من نعمة ، وما لهم من

منزلة !

وشأن العلماء أن يداروا أعداءهم ، ولا يبادلوهم عداء بعداء ، ولا يهبطوا إلى مستواهم لعل حالهم ينصلح !

أما الحسود فيرى الإمام الشافعى صعوبة مداراة الحسود لقد دارى الإمام كل الناس وتحملهم وكان يدفع السيئة بالحسنة ، فإذا الذى بينه وبينه عدواة كأنه ولىّ وصديق حميم ، أما هذا الحسود فلم يفلح معه علاج !

تُرى لماذا ؟

اقرأ البيتين تجد الإجابة :

١ ـ وَدَاريتُ كلَّ النَّاسِ لَكِنَّ حَاسدى
مُدَارَاتُـــهُ عَزَّتْ وَعَــــزَّ منَالُهَــــا

٢ ـ وَكَيْفَ يُدَارِى المرءُ حَاسِدَ نِعْمَةٍ
إذَا كَانَ لاَ يُرْضِيـــــهِ إلاَّ زَوَالُهَــــا

وأراك تقول : إن (مداراة الناس) : ملاطفتهم وملاينتهم والرفق بهم من أهم العوامل فى اتقاء شرهم ، وفيها توفير للجهد والوقت وجمع الشمل ، ولهذا يقول الشاعر :

فدارهـــم مـادمت فى دارهــــم وأرضهـم مادمت فى أرضهــــم

لكن الحسود لا يرضيه إلا زوال نعمتى فكيف أداريه وأرضيه ؟!

الفضل للذى يتفضل

جاء فى حلية الأولياء عن الربيع بن سليمان قال :

قال الشافعى :

١ ــ عل كُلِّ حالٍ أنت بالفضل آخِذٌ
وما الـفضلُ إلا للـذى يَتَـفضّل

وقفه مع البيت :

إن الفضل هو الإحسان ابتداءً بلا علة ، فإذا أعطى الإنسان من ذات نفسه فهو ذو فضل .

والفضل عطاء مستمر فى جميع حالات الإنسان وتحركاته وقد رأينا عندما أفسح أبو بكر مكاناً لعلى بجوار رسول الله ﷺ سُرّ رسول الله ﷺ وقال :
« **لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل** » .

وإنما يتمايز الناس بسبقهم ومبادرتهم وتفضلهم ، فالفضل لمن تفضل وأعطى .

ذل الحياةِ وهول الممات

قال رضى الله عنه :

١ ــ ذُلّ الحياةِ وهولُ المماتِ كُلًّا وجدناه طعماً وبيلا
٢ ــ فإن كان لا بُدّ إحداهما فمشياً إلى الموت مشياً جميلا

وأراك تقرأ البيتين وتقول :

لا خير فى حياة ذليلة يتجرع الإنسان فيها كل يوم ألواناً من المهانة والقسوة والإرغام والجَوْر ، ولا خير فى حياة يتحمل الإنسان فيها ويقاسى أهوال الموت وصنوف العذاب .

كلاهما طعمه وبيل لا تتقبله النفس . والمشى إلى الموت أكرم على الإنسان من هاتين الحياتين !

قافيـة الميـم

فضـل العـلم

توافرت للشافعى ــ رضى الله عنه ــ كل وسائل « العالِم » كما توافرت له كل وسائل « الداعية » .

فقد أُثِر عنه أنه كان يذهب إلى الصبّاغين يتساءل عن معاملتهم ، ويرتاد السوق يحدث أصحاب الحرف بعلمه ، ويفتيهم بما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

ولقد وصل الشافعى بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين . فلقد وصل إليه فى المدينة علم « مالك » كله ؛ فقد لزمه حتى مات ، وفى بغداد وصل إليه علم « أبى حنيفة » كله بعد أن حمله محمد بن الحسن .. ومن ثم اجتمع له علمان : علم أهل الرأى ، وعلم أهل الحديث .. ترى .. هل هناك خير من الشافعى يحدثنا عن العلم وفضله ؟

إنه يحدثنا عن رؤيته لصاحب العلم ، وموقف الكرام منه ، وأثر العلم فى حياتنا .. فتعال ننظر ما يقول :

١ ــ رَأَيْـتُ العِـلْمَ صَـاحِبُهُ كَرِيـمٌ
وَلَـــوْ وَلَدَتـــهُ آبَـــاءٌ لِئَـــامُ

٢ ــ وَلَيْـسَ يَـزَالُ يَرْفَعُـهُ إِلَـى أنْ
يُعَظِّـــمَ أمـــرَهُ القَـــومُ الكِـــرَامُ

٣ ــ وَيتَّبعُونَـــهُ فِى كُـــلِّ حَـــالٍ
كَـراعِـى الضَـــأْنِ تَتْبَعُـــهُ السَّـــوَامُ

٤ ــ فَلولاَ العِـلْمُ ما سَعِدَتْ رِجَالٌ
وَلاَ عُـــرِفَ الحَـــلاَلُ وَلاَ الحَـــرَامُ

وأراك تقول : إن العلماء ورثة الأنبياء ، وما من نبى إلا ورعى الغنم فالعالم راعٍ والناس رعيته يهديهم فيتبعونه كالسائمة (الماشية) التى تتبع راعيها ويالها من منزلة !

المهلكات الثلاث

أقام الشافعى فترة بالبادية فلُقّنَ الفصاحة واستمد الخبرة والتجربة .

وكانت رحلاته مدرسة تعلم منها الكثير ودرس طبائع الناس وأخلاقهم وفهم الحياة وأسرارها وخفاياها ، وعرف المنجيات والمهلكات !

إنه يحصر المهلكات فى ثلاث .. تُرى ما هن ؟

تعال نتعلم من الإمام :

١ ــ ثَلاَثٌ هُنَّ مُهْلِكَةُ الأَنَامِ
ودَاعِيَةُ الصَّحيحِ إلى السِّقَامِ
٢ ــ دَوامُ مُدَامَةٍ ودَوَامُ وطءٍ
وَإدْخَالُ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ

وأراك تقرأ البيتين وتقول :

لقد صدق فالمداومة على المدامة (الخمر) مهلك للصحة والمال وقد قالوا : إنها أم الخبائث !

والإسراف فى المعاشرة الزوجية يبدد الطاقة والجهد والنشاط ، ويستنزف نور عينيه ، ومخ ساقيه !

أما إدخال الطعام على الطعام فيسبب التخمة وهى رأس كل داء ، وقد قالوا : البِطْنة تذهب الفِطْنة .

وأراك تبحث فى قاموسك عن (الأنام) و (السِّقَام) . وأرانى أوفر عليك

الوقت فأضع المعنى بين يديك : الأنام : الخلق ، والسقام : المرض .

العلم بين المنح والمنع !

وصل الشافعى ـ رضى الله عنه بعلمه وثقافته إلى درجة المجتهدين ، فارتفع عن أن يكون من أتباع « مالك » أو تلامذته الذين يجرون فى حدود مذهبه . وهو الذى لازم مالكاً إلى أن توفى سنة ١٧٩ هـ .

وبلغت به الثقة أن كان يعرف أن أهل مصر فرقتان : فرقة مالت إلى قول مالك ، وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة .

ولكنه كان يقول فى حماسة ظاهرة :
« أرجو أن أقدم إلى مصر فآتيهم بشىء أشغلهم عن القولين جميعا » .

لقد حدث ما كان يتوقعه !

لكن كان ذلك مصدر الخلاف بينه وبين المالكية فى مصر فلقى عنتاً شديداً فتعال نتابع ما قاله الشافعى :

أخبر عثمان بن محمد العثمانى وحدّث عنه أبو محمد بن حيان قال : حدثنا أبو على النيسابورى ــ ببغداد ــ حدثنى بعض أصحابنا أن محمد بن إدريس الشافعى لمادخل مصر أتاه جِلّه أصحاب مالك وأقبلوا عليه فابتدأ يخالف أصحابه ثم أنشد قائلا :

١ ــ أأنثُرُ دُرًّا بَيْنَ سَارِحَةِ البَهْمِ
وأَنْظِمُ مَنثوراً لِراعيَةِ الغَنَمْ ؟
٢ ــ لَعَمْرى لئِن ضُيِّعتُ فى شَرِّ بَلْدَةٍ
فَلَسْتُ مُضيِّعاً فيهِمُ غُرَرَ الكَلِمْ
٣ ــ لَئِنْ سَهَّل اللهُ العَزيزُ بلطفِهِ
وَصَادَفْتُ أهلاً للعُلومِ وللحِكَمْ

٤ ـــ بَثْثْتُ مُفيداً واستَفَدْتُ وِدَادَهُمْ
وَإلاَّ فَمَكْنُونٌ لَدىَّ ومُكْتَتَمْ

٥ ـــ ومَنْ مَنَحَ الجُهّالَ عِلْماً أضَاعَهُ
ومَنْ مَنَعَ المستوجِبين فقَدْ ظَلَمْ

[حلية الأولياء ، ومعجم الأدباء]

وأراك تقرأ هذه الأبيات فى أسى وحسرة :

إن الشافعى يتحسر ويتساءل مستنكراً ما ضاع من جهد ووقت وعلم لم يصادف أهله . وكما عبر القرآن : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام** ﴾ قال الشافعى عن مخالفيه إنهم كسارحة البَهم (عجماوات الضأن والمعز) . وليسوا إلا راعية غنم .

وإذا كان الشافعى قد ضُيِّع ولم يُعرَف له قدرُه ، فلن يضيِّع الحِكم والعلم والدرر بين الجاهلين بقدره . حتى يصادف أهلاً للعلم فيبثهم ويستفيد ودهم وإلا فسوف يُبقى علمه محفوظاً لديه مكنوناً فى صدره إذا لم يجد له أهلاً .

ويختِم الأبيات بحكمة جديرة بالتأمل من العلماء والمدرسين :

من منح العلم للجهلة أضاعه ، ومن منع العلم عمن يستحقونه كان ظالماً وتعود فتقول :

ماذا كان مصير الشافعى فى مصر ؟

ويقول التاريخ : إن الخلاف لم يلبث أن نشب بين أتباعه وأتباع مالك فلقيه فتيان ابن أبى السمح المالكى ليلا فضربه أحدهم بمفتاح حديد فشجه ، فلم يسعف بالعلاج فمات شهيد العلم .

عِفُّوا تعفّ نساؤكم !!

إن المؤمن عفيف يكف نفسه عمالا يحل أو يَجْمُل !
والحلال بيِّن والحرام بيِّن .

وأمام تدهور القيم الأخلاقية فى ظل المذاهب المادية التى حصدنا بعض ويلاتها فى سلوكنا الفردى والعام ، حتى أصبحت مصائرنا فى مهب الرياح ؛ وعجلات « المادية » مازالت تدور ، ولم ينته كل الحصاد ..ــ أمام هذا كله نجد أنفسنا فى أمس الحاجة إلى من يذكرنا بالعفة فتعال إلى الشافعى :

١ ــ عفّوا تعِفّ نِسَاؤكُمْ فِي المَحْرَمِ ... وتَجنَّبُوا مَالا يَلِيقُ بِمُسْلِمِ

٢ ــ إنَّ الزنا دَيْنٌ فَإنْ أقرضْتَهُ ... كَانَ الزِّنَا مِنْ أهلِ بَيْتِك فَاعْلَمِ

وأراك تقول : « الزّنا .. دَيْن » .

وكلنا راع ومسئول عن رعيته ، فعلينا جميعاً أن نتجنب مالا يليق بمسلم ، وأن نكون قدوة حسنة .

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوده أبوه

فإذا انفلت زمام رب الأسرة فعلى الدنيا السلام !!

إذا كان رب البيت بالدّف مولعا ... فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

الجود بالموجود !

لقد مات الشافعى فقيراً ولم يترك شيئاً يذكر !

والجميع يتحدثون عن سخائه وكرمه ، ويكفى دليلاً على ذلك أنه عندما أمر هارون الرشيد له بخمسين ألفاً فرقها على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه قبل أن يصل إلى الباب !

وقال الحميدى : قدم الشافعى ــ رحمه الله ــ من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف

دينار ، فضرب خباءه خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتونه ، فما برح حتى فرقها كلها .

وقال البويطى : كانت زبيدة ترسل إليه برزم الثياب والوشى فيقسمها بين الناس !

لقد كان ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .. لا يشكو إلا لله فاقته وفقره ، ومع هذا فيقول الربيع : كان الشافعى إذا سأله إنسان يَحْمَارُّ وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه .

ويحدثنا عن تجربته فى هذا المجال فيقول :

١ ـ أجُودُ بِموجُودٍ وَلَوْ بِتّ طَاوِياً
عَلَى الجوُعِ كَشْحاً وَالحَشَا يَتألَّمُ

٢ ـ وَأظْهِرُ أسبَابَ الغنَى بَيْنَ رِفْقَتى
لِيَخفَاهُمُ حَالِى وإنِّى لُمعدِمُ

٣ ـ وبَيْنِى وَبيْنَ اللهِ أشْكُو فَاقتى
حَقيقاً فَإن اللهَ بالحَالِ أعلَمُ

وأراك تقول : الطاوى : هو الذى يطوى بطنه على الجوع ، والكشح : ما بين الخاصرة والسرة . والحشا : أحشاؤه وأمعاؤه ومعدته ، والفاقة : الفقر .

إلى من يقطعون حبال المودة !!

تتبع مصير الخارجين على القانون .

وتأمل حياة من يهتكون الحُرَم ، وينسفون جسور المودة بينهم وبين من يعايشونهم ؟

اهناك من يكرمهم ؟

أيسلمون من العقاب ؟

ونعيش لنرى الجزاء العادل ينزل بمن يستحقونه ولا يفلتون من العقاب ! وكثيراً ما نتوقف لنقرر حقيقة واقعة فنقول حقاً :

- من قتل يقتل !
- ومن يَزْنِ يُزْن به !
- ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها !

فعلى كل من يفكر فى الشر ، وقبل أن تنزلق قدماه أن يسائل نفسه :

هل أنا كريم الأصل ؟ وهل أرضى أن يهتك أحد حرمتى ؟

فما بالى أرضى لغيرى مالا أرضاه لنفسى ؟!

هل أنا منقاد لعقلى ؛ أم تقودنى شهواتى ؟!

لابد أن أفهم الحقائق إن كنت ذا عقل !

١ ــ يَاهَاتِكَا حُرَمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعاً
سُبُلَ المَوَدَّةِ عشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ

٢ ــ لَوْ كُنْتَ حُرّاً مِنْ سُلالَةِ مَاجِدٍ
مَا كُنْتَ هتَّاكاً لِحُرْمَةِ مُسْلِمِ

٣ ــ مَنْ يَزنِ يُزْنَ بِهِ وَلَوْ بِجِداره
إنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيباً فَافْهَمِ

أنا عند رأيى

الشافعى ــ رضى الله عنه ــ كان صاحب رأى ، ولكنه كان يكره التعصب وإملاء الرأى !

قال الأصبهانى : حدثنا محمد بن إبراهيم ، حدثنا الحسين بن محمد بن غوث الدمشقى قال : سمعت المزنى يقول : كُلم الشافعى فى بعض ما يراد منه فأنشأ يقول :

وَلَقَدْ بَلَوْتُكَ وَابْتَلَيْتَ خَلِيقتى وَلَقَدْ كَفَاكَ مُعَلِّمى تَعْلِيمى

[حلية الأولياء ، وآداب الشافعى]

إنه يقول : كلانا قد اختبر الآخر وابتلاه ، وعرف من أخلاقه ومبادئه ما قد كفاه عن فرض رأيه عليه .

إننى على بينة من رأيك ، فكفاك تعليما لى يا من تريد أن تعلمنى ! فأنا عند رأيى ، ولن أعمل برأيك !

مناجاة !!

كان الشافعى ــ رضى الله عنه ــ توَّاقا إلى أن ينعم بقرب الله ورضاه !

وكل أمله أن يذوق « شراب الأنس » الذى قيل فيه : ﴿ **وسقاهم ربهم شراباً طهورا** ﴾ وهنا نراه يتوسل إلى الله أن يذيقه هذا الشراب :

بموقف ذُلّه بين يديه .. بمخفىّ سره .. بإطراق رأسه .. باعترافه بذلّته .. بمديديه يستمطر الجود .. بأسمائه الحسنى بالعهد القديم الذى أخذه الله على عباده .

١ ــ بموقفِ ذُلى دُونَ عِزّتِكَ العُظمَى
بمخفىِّ سِرٍّ لا أحِيطُ بِهِ عِلْمَا

٢ ــ بَإطرَاقِ رَأسى ، باعِتْرَافِي بِذِلّتى
بمدِّ يَدى ، أستَمْطِرُ الجُودَ والرُّحْمَى

٣ ـ بأسْمَائِكَ الحسنى التى بَعْضُ وصْفِها
لِعَـزتها يَسْتَغْـرَقُ النَّثْـرَ وَالنظمَــا

٤ ـ بِعَهْدٍ قَدِيمٍ مِنَ ألستُ «بِرَبِّكُمْ؟»
بمـنْ كَـانَ مَكْنـوناً فَعُـرِّف بالأسْـمَا

٥ ـ أذِقْنَا شُرَابَ الأنْسِ يَا مَنْ إذَا سَقَى
مُحبًّا شَـرَاباً لاَ يُضَــامُ ولاَ يَظْـمَـا

وأراك تفتح المصحف على الآية رقم ١٧٢ من سورة الأعراف ﴿ **وإذ أخذ ربُّك من بنى آدم من ظهورهم ذُريَّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .. وتقول : هذا هو العهد القديم الذى أخذه الله من بنى آدم .

وتبحث عن شراب الأنس وتجد الآية رقم ٢١ من سورة الإنسان : ﴿ **وحُلّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا** ﴾ يارب متعنا بقربك .

رغبةُ عَبْدٍ فى عَفْوِ الله !!

لحظات الموت هى فترة الانتقال من دار أعمال إلى دار شِقْوة أو رشاد !

تُرى فيم يفكر القادم على ربه عند انتهاء أجله ، وماذا يدور بخلده ؟

حدث المزنى وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال : دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه فقلت :

كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله جلَّ ذكره وارداً ، ولا والله ما أدرى روحى تصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ ثم بكى وأنشأ يقول :

١ ـ إليـك إلَـهَ الْخلْقِ أرفـعُ رَغبتى
وإنْ كنتُ ياذا المنِّ والجودِ مُجْرِمَــا

٢ ـ وَلما قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعلْتُ الرَّجا مِنِّي لعفْوِكَ سُلّمَا

٣ ـ تَعاظَمَنِي ذَنْبِي فَلمَّت قَرنْتُه
بعَفْوِكَ رَبِي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

٤ ـ فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لمْ تَزَلْ
تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

٥ ـ فَلَوْلاَكَ لَمْ يَصْمُدْ لإِبْلِيسَ عَابِدٌ
فَكيفَ وَقدْ أغْوَى صَفِيَّكَ آدَمَا

٦ ـ فياليتَ شِعْرِى هل أصيرُ لِجَنّةٍ
أَهْنَا ؟ وأما للسعيرِ فأندما ؟!

٧ ـ فَلِلَّهِ دَرُّ الْعَارِفِ النَّدْبِ إنَّهُ
تفيض لِفَرْطِ الْوَجْدِ أجفانُهُ دَمَا

٨ ـ يُقِيمُ إذَا ما الليلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ
عَلَى نَفْسِه مَنْ شِدَّةِ الْخوفِ مَأْتَمَا

٩ ـ فَصِيحاً إذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبِّه
وَفِيمَا سِواهُ فِي الْوَرَى كَانَ أعْجمَا

١٠ ـ وَيذْكُر أيَّاماً مَضت مِنْ شَبَابِهِ
وَمَا كَانَ فِيهَا بِالجَهالَةِ أجْرَمَا

١١ ـ فَصَارَ قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهارِه
أخَا السُّهْدِ وَالنَّجوى إذَا اللّيل أظلَمَا

١٢ ـ يَقُولُ: حَبيبى أنْت سُؤْلِى وَبُغيتِى!
كَفَى بِكَ للرَّاجِينَ سُؤْلاً وَمَغنمَا !

١٣ ـ أَلسْتَ الَّذِى غَذَّيتنِى وهديتَنِى
وَلا زِلْتَ مَنَّاناً عَلَيَّ وَمُنْعِمَا ؟!

١٤ـ عَسَى مَنْ لَهُ الإِحْسَانُ يَغفِرُ زَلَّتى
وَيَسْتُـــرُ أوْزَارِى وَمَـــا قَدْ تَقَدّمـــا

١٥ـ تعاظمنـى ذنبـى فأقبـلتُ خاشعاً
ولـولا الـرضا ما كنتَ ياربِّ مُنْعمـــا

١٦ـ فإن تَعْفُ عنى تَعْفُ عن متمرِّدٍ
ظَلُـــومٍ غَشُومٍ لا يُزَايِـــلُ مَأْثَمَـــا

١٧ـ فإن تَنْتَقِمْ مِنّـــى فلستُ بآيسٍ
ولـو أدخلوا نفسى بُجْـــرِمٍ جهنَّمـــا

١٨ـ فجُرمى عظيمٌ من قديمٍ وحادثٍ
وعفوُك يأتى العبـــدَ أعلى وأجْسَمَـــا

١٩ـ حَوالَىَّ فضلُ الله من كل جانِبٍ
ونـورٌ من الرَّحْمـنِ يفتـــرش السَّمَـــا

٢٠ـ وفى القلب إشراقُ المُحِبِّ بوصلِهِ
إذا قارب الـبُشْرى وجاز إلى الحِمَى

٢١ـ حوالىَّ إينـاسٌ من الله وحـــده
يُطالعُنـــى فى ظُلْمـــةِ الـــقبر أنْجُمَـــا

٢٢ـ أصونُ وِدادِى أن يُدَنِّسَه الهوى
وأحفظُ عهدَ الحُبِّ أن يَتثلَّما

٢٣ـ ففى يقظتى شوقٌ وفى غَفوتى مُنىً
تُلاحِـــقُ خَطْـــوى نَشْوةً وترنُّمـــا

٢٤ـ ومن يعتصم بالله يسلم من الوَرَى
ومَـــن يَرْجُـــهُ هَيهاتَ أن يتندمَـــا

وأراك تقول :

ما أجدرَ هذه الرغبة أن تكون على لسان كل مؤمن !

من فضل العلم

لا يعرف فضل العلم إلا الذين ذاقوا حلاوته وحملوا رايته .

وفى هذه الأبيات الثلاثة يتحدث الإمام الشافعى عن فضل العلم لمن خدمه ..

ترى ماذا يكون موقف الناس ممن يخدُم العلم ؟

وماذا يجب على خادم العلم تجاهه ؟

وما رأى الإمام الشافعى فيمن حوى العلم ثم أودعه ـــ بجهله ـــ غير أهله ؟

تعالَ ننظر ما قال الشافعى مجيبا عن هذه الأسئلة :

١ ـــ العِلْمُ منْ فَضْلِهِ ، لِمنْ خَدَمَهْ
أنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ خَدمَهْ

٢ ـــ فَوَاجِبٌ صَوْنُهُ عَلَيْهِ كَمَا
يَصُونُ فِى النَّاسِ عِرْضَهُ وَدَمَهْ

٣ ـــ فَمنْ حَوَى العِلْمَ ثُمَّ أوْدَعَه
بِجهلِهِ غيرَ أهلِهِ ظلَمه

استعارة الكتب

فى العراق أتيح للشافعى أن يتصل بمحمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة وصاحبه الذى آلت إليه رئاسة المذهب الحنفى بعد أبى يوسف .

وقد استعار الشافعى من محمد بن الحسن شيئا من كتبه فلم يسعفه به ، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه :

١ ـــ قُلْ للذى لم تَرَ عينا من رآه مِثْلَهْ
٢ ـــ ومن كانٍ مَنْ رآه قد رأى من قبلَهْ
٣ ـــ لأنّ ما يجنه فاق الكمالَ كلّهْ

٤ ــ العلم يَنْهَى أهْلَــه   أن يمنعــوه أهلــهْ
٥ ــ لَعَــلّــهُ يَبْــذُلُــه   لِأهْلِــــهِ لَعَــلّــهْ

[مروج الذهب وشرح مقامات الحريرى]

وأراك تقول :

نعم .. العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله !

وربما كان لمحمد بن الحسن عذر والشافعى يلوم !

وربما كان هذا من دلال العلماء ، فقد وقف محمد بن الحسن إلى جانبه بعد نجاته من محنته وفتح له قلبه ووضع علمه بين يديه .

قافيـة النـون

بِمَ يُنَالُ العلم ؟

الذين لمسوا فضل العلم تتوق نفوسهم إلى نيله .

وفى بيتين يحيطنا الشافعى علما بما يُنال من العلم .

وأراك تسبقنى وتقول :

إنه الذكاء .. وأقول لك : إنه واحد من ستة . فتقول : **والاجتهاد** ، **فأقول : بقى أربعة منها ، تُرى ما هى ؟**

ويجيب الشافعى :

١ ــ أخِى : لن تنالَ العِلْمَ إلا بِستَّةٍ
سَأُنْبِيك عن تفصيلهــا ببيــان
٢ ــ ذَكَاءٌ ، وحِرصٌ ، واجتهادٌ ، وبُلْغةٌ
وصُحْبَــةُ أُسْتَــاذٍ ، وطــولُ زَمَــانِ

وأراك تقول :

العلم بحر واسع يحتاج تحصيله إلى وقت ، وكما يقولون :

الزمن جزء من العلاج .

وصحبة الأستاذ لابد منها ، فالعلم فى التَّلَقِّى والحِرصُ هو الذى يأخذ بأيدينا إلى التفوق .

ولكن ما البُلْغة ؟ وأقول :

البُلْغَةُ : هى القدر الضرورى من الطعام والشراب الذى يبلغنا الحياة .

وأسمعك تقول: نعم فكم حال الفقر دون أن يغترف الكثيرون من بحر العلم ما يشاءون !

لابد من بُلْغة إلى جانب الذكاء والحرص والاجتهاد وصحبة الأستاذ ، وطول زمان .

معاملة الناس فن

أساس إحترام النفس القناعة ..

والعِزة فى صون النفس عن الهوان ..

ومن هانت عليهِ نفسه كانت على الناس أهون !

ومن هنا رأينا الشافعى يعمل ألف حساب لما قد يقال : لفلان فضل على فلان !

وقد كان العربى الحر على استعداداً لأن يستف تُرْبَ الأرض ولا يرى لأحد فضلا عليه .

ويقول الشافعى :

١ ــ قَنِعْتُ بالقُوتِ مِنْ زَمَانى وَصنتُ نفسِى عَن الهَــــوانِ

٢ ــ خوفاً مِنَ النَّاسِ أنْ يَقولُوا فضْلُ فلانٍ عَلَـــــى فُلَانِ

٣ ــ مَنْ كُنْتُ عَنْ مَالِهِ غَنِيًّا فلا أُبالِـــى إذَا جَفَـــانى

٤ ــ وَمَــنْ رَآنى بِعين نَقْصٍ رَأَيْتُــــه بالَّـتـى رَآنِـــى

٥ ــ وَمَــنْ رَآنى بِعيــنِ تِمٍّ رَأيْتــهُ كامــل المعــانِى

وأراك تردد مع الشافعى مبادئ السلوك :

- من كنت عن ماله غنيا فلا أبالى إذا جفانى وقاطعنى !
- من رآنى ونظر إلى باحتقار بادلته نظراته .
- من رآنى بعين التقدير بادلته احتراماً باحترام ، وقد أمرنا الله أن نرد التحية بمثلها إن لم يكن بأحسن منها !

حفظ اللسان

قالوا : المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .

ورحم الله امَرأً قال خيرا فغنم وسكت عن شر فسلم . ومن أجل هذا نرى إمامنا الشافعى يحذرنا فيقول :

١ ــ احْفَــظْ لِسَانَكِ أَيُّهــا الإِنْسَانُ
لاَ يَلْدغَــنَّكَ إنَّــهُ ثُعْبَــانُ

٢ ــ كَمْ فى المَقَابِرِ مِنْ قَتيلِ لِسَانِه
كَانَتْ تَهــابُ لِقَــاءهُ الأَقْــرَانُ

وأراك تقول :

إلى هذا الحد يكون اللسان ؟!

إنه ثعبان يلدغ !!

كم من شجعان أبطال يهاب أمثالهم وأقرانهم لقاءهم فى الحروب فسقطوا قتلى ألسنتهم !

وأقول لك :

إن جرح السيف قد يلتئم ويُشفى وكأن شيئاً لم يكن .

أمّا جراحات اللسان ، فلا تلتئم ولا تُنْس !

فتقول لعلك تقصد قول الشاعر :

جراحات اللسان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

العيب فينا !

إن الشعور بالنقص أول الكمال !

وانشغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوب غيره من صفات المؤمنين الذين ينشدون الكمال !

ولكننا عندما نلتقى نُحَمّلُ الزمانَ معايبنا ونهجوه بغير ذنب !

ولا نتوقف عند ذلك ؛ بل نتناول الآخرين وننال منهم ، ولو علمنا أن الحديث عن عيوب الآخرين ما هو إلا وسيلة لإخفاء عيوب النفس ــ لأقلعنا عن هذه العادة الذميمة التى تأنف الحيوانات الضارية المتوحشة أن تتصف بها ، وهل يأكل الذئب لحم ذئب ؟!

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟!

فيامن يعيبون الزمان ، ويأكلون لحم الإنسان تعَالَوْا إلى حكمة الشافعى :

١ ــ نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فينا
وَمَا لزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوانَا

٢ ــ وَنهجُو ذَا الزَّمَانَ بغير ذنْبٍ
وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

٣ ــ وَلَيْس الذِّئبُ يَأكُلَ لحْمَ ذِئبٍ
ويأكُلُ بَعضُنَا بَعْضاً عَيَانَا

فهل لنا من وقفَة مع النفس ؟!

القِصاصُ العِادل ممن يظلمون !

قالوا : الدهر يومان : يوم لك ويوم عليك .

وقالوا : من لم يؤدبه أبواه أدبته الأيام والليالى !

والدهر مُنْصِف ؛ فكما تدين تُدَان !

وياويل الظالمين مما يناالهم على يديه من محن وأحزان ولا عتابَ على الزمن لأنهم بدءوا والبادئ أظلم ! وهاهى ذى خبرة الشافعى يسوقها إلى الذين تحكموا فى عباد الله فتمادَوْا فى طُغيانهم وطَغَوا وبَغَوْا ، وهل تدوم الدنيا على حال ؟ فما أصدق ما قيل لو دامت لغيرك ما وصلت إليك !

١ ــ تَحَكَّمُوا فَاستَطَالُوا فى تَحكُّمِهم
وَعَمَّا قَلِيلٍ كأنَّ الأمْرَ لَمْ يَكُن

٢ ــ لَوْ أنْصفُوا أُنْصِفُوا لكِنْ بغَوا فبَغى
عَليهِمُ الدَّهْرُ بالأحزانِ والمِحنِ

٣ ــ فَأصْبَحُوا وَلِسَانُ الْحال يُنْشِدُهُمْ
هذَا بِذَاكَ وَلاَ عَتْبٌ عَلَى الزَمَنِ

وأراك تُرَدّد :

لو أنْصَفُوا أُنْصِفوا .

لكن بَغَوا فبَغَى عليهم الدهر ، والباغى أظلم !

ولا عتاب على الزمن !!

وهل يُعاتَب المنصف ؟!

مشيئة الله

قال ابن كثير : كان الشافعى يقول : القرآن كلام غير مخلوق ، ومن قال مخلوق

فهو كافر ، وقد كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف على طريقة السلف .

قال ابن خزيمة : أنشدنى المزنى وقال : أنشدنى الشافعى لنفسه قوله :

١ ــ ما شِئْتَ كَانَ ، وإنْ لَمْ أشَأْ
وَمَــا شِئْتُ إن لَمْ تَشأْ لَمْ يَكُــنِ
٢ ــ خَلَقْتَ العِبَادَ لِمَا قَدْ عَلِمْتَ
فَفِى العِلْمِ يَجرى الفَتَى وَالمُسِنّ
٣ ــ فَمِنْهُمْ شَقىٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيـد
وَمِنْهُـمْ قَبِيــحٌ ، وَمِنْهُــمْ حَسَنْ
٤ ــ عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وَهَـذَا خَذَلْت ،
وَذَاكَ أعَــنْتَ وذَا لَمْ تُعِــنْ

[البداية والنهاية لابن كثير ، والانتقاء]

أغلى نصيحة لمن أراد أن يحيا سليماً .. !

ليس فى الناس من يكره أن يعيش سليماً ..

سليماً من الهلاك ..

دينه موفور ..

وعرضه مَصُون ..

ولكن كيف الطريق إلى سلامة تامة ، ونعمة عامة ، ويجيب الشافعى عن هذا فيقول :

١ ــ إذَا رُمْتَ أنْ تَحيَا سَلِيماً مِنَ الرَّدَى
وَدِينُكَ مَوفُــورُ وَعِــرْضُكَ صَيِّــنُ

٢ ـــ فَلاَ يَنْطِقَنْ مِنْكَ اللسَانُ بِسوأةٍ
فَكُلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلنَّاسِ أعْيُنُ
٣ ـــ وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ، وَسَامِحْ مَن اعتَدَى
وَدَافِعْ وَلَكِنْ بالتى هِىَ أحْسَنُ

وأراك تلخص هذه النصيحة الغالية فتقول :

١ ـــ كف اللسان عن السوء والأذى . ٢ ـــ المعاشرة بالمعروف .

٣ ـــ مسامحة من اعتدى .

٤ ـــ الدفع بالتى هى أحسن .

ألم يقل الله سبحانه : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾

[فصلت/٣٤] .

سوء الظن

لقد أمرنا أن نُحسن الظن بالناس ، فلنا ظاهرهم والله يتولى سرائرهم : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾

[١٢/الحجرات] .

ولكن ماذا نفعل إذا كنا فى وسط جماعة من اللئام ؟

ماذا نفعل إذا كان عدونا ينشر جواسيسه من حولنا ؟

هل نحسن الظن ؟! هل نطلعه على أسرارنا ومواطن ضعفنا ؟!

لا .. لا .. إن سوء الظن عندئذ عصمة ! فكم تعرض الإنسان بسبب حسن ظنه لكثير من مشكلات الحياة وعلى رأسها الجوع والمخمصة ، وعلى المؤمن أن يكون حذراً يقظاً ؛ فلا يلدغ من جحر مرتين !

وفى جو الحيل ، والخداع ، والمكر ، والألاعيب ، حيث تنعدم الرؤية السليمة

للأشياء ينبغى أن يلبس المؤمن لكل حال لبوسها طالما كان الجو من حوله ملبداً بغيوم الخداع والمكر ، لكيلا يؤخذ على غِرّة !

ومن هنا كانت وصية الشافعى :

١ ـ لا يَكُـــنْ ظَنُّكَ إلاَّ سيِّئـــاً
إنَّ سُوءَ الظَّـنِ مِنْ أقْـوى الفِطَـنْ

٢ ـ مَا رَمى الإنسَانَ فى مَحْـمَصَةٍ
غَيْرُ حُسْنِ الظَّنِ وَالقـولِ الْـحَسَنْ

وأراك تقول : إمام يدعو إلى سوء الظن بعد وصاياه بحسن المعاملة ؟!

ربما كان هذان البيتان لغيره ونسبا إليه ! وأقول لك : وماذا يمنع من نسبتهما إليه ما دمنا نعرف مع من نحسن الظن ؟ وبمن نسيء الظن ؟ إن حسن الظن بالأشرار بلاهة !

سُفُنُ النّجاة من شرور هذه الحياة !

من الوصايا الإيمانية :

« جَدّدِ السفينة ، فإن البحر عميق ! » .

والدنيا دار أعمال ننتقل منها إلى دار شِقْوةٍ أو رشادٍ والمؤمنون المثاليون هم الذين يقولون :

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾

[البقرة/٢٠١] .

وما أشبه الدنيا ببحر علينا أن نعبره إلى الدار الآخرة إنها بحر لُجِّىّ واسع متلاطم الأمواج ، والأعمال الصالحة هى سفن النجاة . ترى ماذا يقول الشافعى ؟

١ ـ إنَّ لله عِبَـاداً فُطَنَـــا تَرَكُوا الدُّنيا وخافُـوا الفتنــا
٢ ـ نَظَروا فِيهَا فَلمّا عَلِمُوا أَنّهــا ليستْ لِحَــىٍّ وطنــا

٣ ــ جعَلوهَا لُجَّةً واتَّخذوا صالح الأعمــال فيها سُفُنَــا

[الكشكول ، وعين الأدبوالسياسة]

وأراك تقول :

١ ــ هناك من يتعلقون بالدنيا فتشدهم إليها وينسون أنها ليست دار إقامة .

٢ ــ ولكن أهل الفطنة والذكاء لما فكروا وعرفوا الحقيقة راحو يعدون لما بعد الموت ، وما وسيلتهم إلى ذلك إلا الأعمال الصالحة فهى زادهم على الطريق .

الميزان العادل فى معاملة الناس

الحكيم من وزن الناس بالميزان الذى يزنونه به .

والمعاملة بالمثل مبدأ من المبادىء المريحة للنفس ! نعم قد يتسامح الإنسان ــ كما أمر الدين ــ مع ذوى القربى والأهل والأصدقاء والإخوة فى الله ولكن هناك من لا ينفع معهم إلا المعاملة بالمثل فتعال نستطلع رأى الشافعى .. إنه يقول :

١ ــ زِنْ مَنْ وَزَنْكَ بِمَــا وَز نَك ، وَمَــا وَزَنْكَ بِهِ فَزِنْــهُ

٢ ــ مَنْ جَا إليكَ فَرُحْ إليــ ــه ، وَمَنْ جَفَاك فَصُدَّ عَنْــهُ

٣ ــ مَنْ ظَنَّ أنَّكَ دُونَــــه فاتــرُكْ هَوَاهُ إذَنْ وهِنْــــهُ

٤ ــ وارْجِعْ إلَى رِبِّ العِبَا دِ فكُــلُّ مَا يَأْتِــيكَ مِنْــهُ

وأراك تقول ملخصاً :

١ ــ ينبغى أن نزِن الناس بما يزنوننا به .

٢ ــ ومن زارنا زرناه ، ومن جفانا وقاطعنا نقاطعه ونصد عنه .

٣ ــ ومن ظن أنه أعلى منا وأننا أقل منه لا يستحق تكريمنا له . ولا يلقى منا

إلا الإهانة .

٤ ــ وعلينا أن نقصد رب العباد ، فكل ما يأتينا منه .

دع الهم والقلق !

لماذا تقضى الليل ساهرا تحمل هموم المستقبل ، والأمور بيد الله يصرفها كيف يشاء ؟!

وما دمت مؤمنا بالقضاء ، فلا تقطع الأمل والرجاء فإن حمل الهموم يزلزل الأعصاب ، ويؤدى إلى الجنون ، وما دمت تؤدى واجبك ساعة بعد ساعة فإن الله يقول : ﴿ **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ [٣٠/الكهف] .

أليس الذى كفاك بالأمس ما كان ، سيكفيك فى غد ما يكون ؟

دع الهم والقلق وكن متفائلا مادمت تعمل بأمانة وإخلاص ، وتعال نردد معاً حكمة الشافعى :

١ ــ سَهِرَتْ أَعينٌ ، وَنَامَتْ عُيونُ
فِى أُمورٍ تكونُ أَوْ لاَ تَكونُ
٢ ــ فادْرَأ الهمَّ مَا استَطعْتَ عَنْ النَّفْـ
ـسِ فحملانُكَ الهمومَ جُنُونُ
٣ ــ إنَّ رَبًّا كفَاكَ بِالأَمسِ مَاكَا
نَ سَيكْفيكَ فى غَدٍ مَا يَكُونُ

وأراك تسلم إلى الله وتقول :

يارب ، لتكن مشيئتك !

يارب ، لِيَنْفُذ فينا قضاؤك !

يا رب ، أنت الرزاق ذو القوة المتين !

متى تهون النفس ؟!

بعض الناس تراهم أذلاء ، يعلوهم الهَوان ، وتبحث عن السرِّ ؟ وتتساءل :

كيف والله خَلَقَهم أعزاء ؟!

ألم يقل الله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ ؟! [٨/المنافقون] .

فلماذا هذا الذل ، وذاك الهوان ؟!

ويكشف الإمام الشافعى عن سر تلك الذلة التى تعلو وجوه بعض الناس .. إنه « الطمع » .

ترى ماذا يفعل من أراد أن يريح نفسه ويصون عِرضَه عن المهانة والضَّعة ؟!

تجد الإجابة الشافية فى الأبيات الآتية :

١ ــ أَمَتُّ مَطَامِعــــي فأرحْتُ نَفْسِي
فإنَّ النَــفْسَ مَا طَمِــعَتْ تَهــــونُ

٢ ــ وَأَحيَيْتُ القُنُوع وَكَانَ مَيْتــاً
ففِــــي إحيائِــــهِ عِرْضٌ مَصونُ

٣ ــ إذا طَمعٌ يَحِلُّ بِقَــلْبِ عَبْــدٍ
عَلَتْــــهُ مَهَانَـــةٌ وَعَــــلاَهُ هُون

وأراك تقول لكل من حولك :

إياك والطمع : أَمِتْ مطامعك ــ أحْيِ القناعة فى قلبك حتى تعيش عزيزاً !!

فكمْ أذل الحرص والطمع أعناق الرجال ؟!

من أدب الكلام

عندما يهب الله الإنسان لسانا ناطقاً ويهديه إلى جوامع الكلم ، وروائع البيان فعليه أن يجنب نفسه مالا خير فيه من اللغو والحشو ، قراءة ، وكتابة ، ونطقاً !!

وعليه أن يعرف متى يتكلم ، ومتى يصمت ؛ فقد يكون الصمت خيراً من كلام لا داعى له ! فهناك مواقف تستدعى الصمت .

والناس كتاب مفتوح ، وفى وسعك أن تقرأ طباع الفتى فى صفحة وجهه وعلى جبينه .

وقد ورد فى الأثر : « إن من الشعر لحكمة » .

ويقول الشافعى الحكيم :

١ ـ لاَ خَيْرَ فِى حَشْوِ الكَلا ... مِ إذَا اهتَديْتَ إلى عُيونِه

٢ ـ والصَّمْتُ أجمَلُ بالفَتَى ... مِنْ مَنْطِقٍ فى غَيْرِ حِينِه

٣ ـ وَعَلَى الفَتَى لِطِبَاعِهِ ... سِمَةٌ تَلوحُ عَلَى جَبِينِه

وأراك تفكر :

متى يكون الكلام من فضة ؟

ومتى يكون السكوت من ذهب ؟

ومتى يكون الكلام داء ؟

ومتى يكون الصمت دواء ؟

لابُدّ من الصّبر

لا يملك الإنسان فى مواجهة الموت إلا الصبر فهو آتٍ إن عاجلا أو آجلا .

وحتى عندما يَسْلَم الإنسان منه إلى حين فإن الموت يلاحق أحباءه وأقرباءَهُ وذلك مما يسيء الإنسان ولا يملك معه إلا الصبر .

١ ــ سَأَصْبِرُ للحِمامِ وَقَدْ أتانى وَإلاَّ فهــو آتٍ بَعْــدَ حِين
٢ ــ وإنْ أَسْلَمْ يَمُتْ قَبْلى حبيبٌ وموتُ أحِبَّتى قَبْلى يَسونِى

وعندما نتوقف عند بعض الكلمات تقول لنا معاجم اللغة :

الحِمام : الموت ، ويسونى : يسوءنى . حذفت همزتها رعاية للوزن .

كيف نعامل من يمنون علينا ؟!

وجدير بمن يَمُنّ علينا بمِنّةٍ أسداها إلينا ألا نعترف له بفضل ، وألا نحمل له فى نفوسنا مشاعر الاعتراف بالجميل ، فقد كشف عن لؤمه !

١ ــ لاَ تَحمِلَنَّ لِمنْ يَمُنّ مِنَ الأنَامِ عَليكَ مِنَّه
٢ ــ وَاختَرَ لنَفسِكَ حَظَّهَا واصْبِرْ فإنَّ الصَّبْرَ جُنَّه
٣ ــ مِنَن الرِّجالِ عَلَى القُلو بِ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ الأسنّه

[أدب الدنيا والدين]

ولا أمل مع أمثال هؤلاء إلا الصبر فهو جُنَّةٌ ووقاية مِمّا يصيب القلوب من أثر المن .. إنه أشد من وقع الرماح !

وصمة عار

تعداد النعم ، وذكر الإحسان على من أحسنت إليه مما يحبط عمل الخير ، ويسىء إلى من أحسنا إليه .

والنفوس الأبية ترى فى المن عاراً ومهانة فخير للإنسان وأكرم لُقْمَة من العيش

تكفيه دون مَنّ إلى يوم تكفينه .

إن الله هو المعطى ويقول لنا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تُبْطلوا صدقاتِكم بالمن والأذى** ﴾

[٢٦٤/البقرة]

فماذا يرى الشافعى فى المن ؟

إنه يرى فيه ما يراه من يُكْوى بحديدة (ميسم) تترك أثرها فيه ألا تراه يقول :

١ ـ رَأيتُكَ تكوينى بِمِيْسَمِ مِنَّةٍ
كَأنَّكَ كُنْتَ الأصلَ فى يَوم تكْوينى
٢ ـ فَدَعْنِى مِنَ المنّ الوخيم فلُقمَةٌ
مِنَ العَيْشِ تَكْفِينى إلَى يَومِ تَكْفِينى

والمِيْسَم : آلة الكىّ . والمِنّة : العطية . والوخيم : سيىء الأثر . وتكفينى الأولى من الكفاية والثانية من الكفن .

تعزيــة

من السنة أن يعزى المسلم أخاه ، ويسليه حتى ينسيه ما ألمّ به ، ويخفف وقعه عليه .

وقد مات ابن لعبد الرحمن بن مهدى فكتب إليه الشافعى يعزيه ، وضمّن الكتاب هذين البيتين :

١ ـ إنِّى أعزِّيكَ لا أنّى عَلَى طَمعٍ   من الخُلودِ ، وَلكنْ سُنَّةُ الدِّينِ
٢ ـ فما المُعَزِّى بباقٍ بعدَ صاحبهِ   ولا المُعَزَّى وإنْ عاشَا إلى حينِ

[منهاج اليقين ومعجم الأدباء]

وقد ورد البيت الأول فى منهاج اليقين :

إنى أعزيك لا أنى على ثقةٍ　　من الحياةِ ولكن سنة الدين

والبيت بروايتيه مستقيم المعنى والوزن .

أفضل العلوم

لقد كان الشافعى ــ رضى الله عنه ــ يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فيجيؤه أهل « القرآن » فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا .

وجاء أهل « الحديث » يسألونه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا ..

ثم تستوى الحلقة « للمناظرة » والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا .

ثم جاء أهل « العربية » والعَرُوض والشعر والنحو حتى يأتى المساء .. والشافعى جالس فى حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس .

ترى لو سئل الإمام الشافعى عن أفضل العلوم فماذا يقول :

يقول البويطى وهو من أشهر تلاميذ الشافعى الذين نشروا مذهبه :

سمعت الشافعى يقول : عليكم بأصحاب الحديث ، فإنهم أكثر الناس صواباً ؛ وقال : إذا ما رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جزاهم الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل ، ومن شعره فى هذا المعنى قوله :

١ ــ كُلُّ العُلُومِ سِوَى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ　　إلا الحديثَ وعِلْمَ الفِقْهِ فى الدّين

٢ ــ العلم ما كان فيه : « قال » .. « حدثنا »　　ومــا سِوَى ذاك وَسْواسُ الشيــاطين

[البداية والنهاية لابن كثير]

جنون الجنون !

العقل زينة !

ويا شقاء من حرم العقل !

فما بالنا بمن جُنّ جُنُونه ؟!

قال الأصبهانى : حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت محمد بن بشير الآبُرّى يقول :

سمعت الربيع يقول : كنت عند الشافعى فجاء رجل فكلمه بكلام ، فأنشأ الشافعى يقول :

جنُونُك مجنونٌ ولَسْتَ بواجِدٍ طبيباً يُدَاوِى مِنْ جُنُونِ. جُنُونِ

حَسّن خُلُقَك مَعَ الغرباء !!

الربيع بن سليمان المرادى من تلاميذ الشافعى ويعتبر عمدة الرواية عن الشافعى

ومن تلاميذه أيضا : الربيع بن سليمان الجيزى ويحدثنا محمد بن إبراهيم عن عبد العزيز بن أبى رجاء عن الربيع بن سليمان قال :

كتب إلىّ البويطى وهو فى السجن[1] :

حَسّن خُلقَك مع الغرباء ، ووطّن نفسك لهم فإنى كثيراً ما سمعت الشافعى يقول :

أُهينُ لهم نَفْسِى وَأُكرِمُها بهم ولا تُكْرَم النّفْسُ التى لا تُهِينُها !

[حلية الأولياء وآداب الشافعى]

---

(١) مات وهو فى السجن لامتناعه عن القول بخلق القرآن .

وأراك تقول :

إن هذا الخلق من الأخلاق العربية القديمة حيث يقول الشاعر العربى :

وإنى لعبد الضيف مادام نازلا وما شيمة لى غيرها تشبه العبدَ

وآراك تسائلنى :

كيف لا تُكَرَّمُ النفس التى لا تهينها ؟

وأقول : إن تواضعه لضيوفه ، وسهره على خدمتهم وراحتهم هو أحد العوامل فى إكرام الناس له ولولا ذلك لما كبر فى أعينهم ولما كرموه !

وقد وصف الله من اتبعوا نبيه بقوله : ﴿ **أذلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين** ﴾

[٥٤/المائدة]

قافية الهاء هـ

شتان ما بين الفقيه والسفيه

كان أستاذنا يعلمنا كيف نتعامل مع السفهاء فيقول :

إذا نطـق السفيــه فلا تجبــه فخير من إجابتــه السكــوت

ونسأله لماذا ؟

فيجيب : إن السفه طيش ، ونقصان عقل ، وجهل فى الأمور الدنيوية والأمور الدينية ؛ فكيف يتم التفاهم مع السفيه ؟!

وقد عانى الشافعى من تنطع السفهاء ومبالغتهم وتعمقهم فى مخالفته ظناً منهم أنهم

سوف ينتصرون عليه ، وأنى لهم ذلك ، وقد غلب عليهم الشقاء .. تُرى ماذا يقول الشافعى فى أولئك السفهاء ؟!

قال الشافعى رضى الله عنه :

١ ــ ومنزلةُ السفيهِ من الفَقِيهِ　　كمنزلــةِ الفقيــهِ من السَّفِيــهِ
٢ ــ فهذا زاهدٌ فى قربِ هذا　　وهـذا فيـهِ أزهــدُ منــه فيــهِ
٣ ــ إذا غلبَ الشقاءُ على سفيهٍ　　تنَطَّــعَ فى مُخَالَفَــةِ الفَقِيــهِ

وليس فى جدال أمثال هؤلاء إلا الخسارة وضياع الجهد والوقت ولقد يصدق فى أمثالهم القول : « إذا جادلت وناظرت وانتصرت فقد خسرت » !!

قافية الياء والألف المقصورة
حُبّ الفاطمية

نصلى على النبى ﷺ وآله فى صلاتنا وخارجها حُبًّا له وتكريما ، وقد أمرنا بذلك :

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [٥٦/الأحزاب]

فلا حرج على الشافعى إذا ذكر عليا وسبطيه وفاطمة الزكية بما هم أهل له ! وهل يعد ذلك رفضاً وخروجاً على عقيدة أهل السنة والجماعة ؟!

إن الشافعى ليبرأ ممن يرون الرفض حب الفاطمية .

١ ــ إذَا فِى مَجْلِسٍ نَذْكُرْ عَلِياً　　وَسِبْطَيْــهِ وَفاطمَــةَ الزَّكِيّــه

٢ ــ يُقَالُ تَجاوزُوا يا قَوْمُ هَذَا　　فَهــذَا مِنْ حَدِيثِ الرَّافِضِيّــه
٣ ــ بَرِئْتُ إلىَ المُهيمنِ مِنْ أناسٍ　　يَرونَ الرَّفْضَ حُبَّ الفَاطِمِيَّــه

وأراك تقول :

نعم لا أرى بأساً فى حب على والحسن والحسين وفاطمة الزكية . وكيف لا وهم آل البيت الأطهار !

الإعراض عن الجاهلين

وصف الله المؤمنين بقوله :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾　[٥٥/ القصص]

وقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾　[٦٣/الفرقان]

والجاهلون : هم السفهاء الطائشون .

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض عنهم .

﴿ خُذِ العفو وأْمُرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾　[١٩٩/الأعراف]

والشافعى وقد عاش تجربة مريرة وصادف الكثير من الجهلة والسفهاء يقول :

١ ــ أعْرِض عن الجاهِلِ السّفِيه　　فكُــلُّ ما قالَ فَهْــوَ فيــه
٢ ــ فما ضَرَّ بَحْرَ الفُراتِ يَوْماً　　أن خَاضَ بعضُ الكِلابِ فيــه

وأراك تقول : سأعرض عنهم ، ولن يضرنى خوضهم بالباطل ، وهل يتأثر البحر بخوض الكلاب فيه ؟!

نظرات فى الحياة
ومبادىء للسلوك

كل بنى آدم خطاء ، ولكل منا عيوبه ، والله حليم ستار !

ومن الناس من يرانا بعين المحب فيتغاضى عن عيوبنا ، ولا يحاول نشرها على الناس ، أملا فى إصلاح ما فسد !

وهناك من يرانا بعين ساخطة فيجعل من الحبّة قبة أملاً فى أن تشيع المساوىء بين الناس ! ورغبة فى فضيحتنا !

إن الشافعى يحدثنا عن « عين الرضا » و « عين السخط » وعلينا أن نعرف من يحبنا ومن يكرهنا .

ونراه يتخذ المعاملة بالمثل مبدأ سلوكياً فى التعامل مع الناس ، لأنه غنى عنهم فى الدنيا أما فى الآخرة فأشد غنى !

تعال إليه يعلمنا كيف نعامل الناس ؟

١ ـ وَعَينُ الرِّضَا عَنْ كلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ
وَلَكِنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبْدِى المَسَاوِيَا

٢ ـ وَلَسْتُ بَهيّابٍ لمنْ لاَ يَهابُنى
وَلَسْتُ أرَى لِلمرْءِ مَالاَ يَرَى لِيَا

٣ ـ فَإنْ تدنُ مِنى ، تَدْنُ مِنْكَ مَودَّتى
وَإنْ تَنْأَ عَنى ، تَلْقَنى عَنْكَ نائِيَا

٤ ـ كِلانَا غَنِىٌّ عَنْ أخِيه حَيَاتَه
وَنَحْنُ إذَ مِتْنَا أشَدُّ تَغَانِيَا

وأراك قد عرفت : موقف كل من المحبين والساخطين منا ؟

ومن أولئك الذين لا يهابهم الشافعى ؟ ومن أولئك الذين لا يرى لهم حقوقاً عليه ؟ ولمن يعطى مودته ؟ وعمن ينأى ويبعد ؟ ولماذا ؟

الرضا بالقضاء !

هناك مفارقات يَحارُ فيها الفكر ..

ولكنه قضاء سابق للديان سبحانه ..

وقد نضعف أمام مُرّ القضاء ولا نقوى على تحمله فنشكو ..

ومن عرف الدهر تصبر للبلوى ولم يظهر الشكوى فالشكوى لغير الله مذلة !

ترى ما تلك المفارقات ؟ ويجيب الشافعي فيقول :

١ ـــ أرَى حُمُراً تَرْعَى وَتُعْلَفُ مَا تَهْوى
وَأُسْداً جِيَاعاً تَظْمَأُ الدَّهـــرَ لاَ تُرْوَى

٢ ـــ وأشْرَافَ قَوْمٍ لاَ يَنالـونَ قُوتَهُـمُ
وَقَوْماً لِئاماً تَأكُـل المَـنَّ والسَّلْوى !

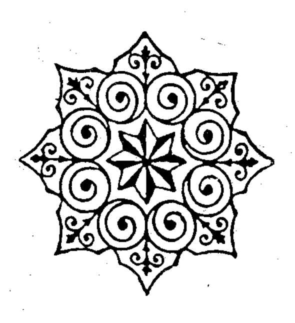
٣ ـــ قَضَاءٌ لديَّـــانِ الخلاَئِقِ سَابِـــقٌ
وَلَيْسَ عَلَى مُرِّ القَضَا أحدٌ يَقْـوَى

٤ ـــ فَمنْ عَرَفَ الدَّهْرَ الخُؤونَ وَصَرْفه
تَصَبَّرَ لِلْبَلْوى وَلَـمْ يُظْهِرِ الشَّكْـوَى

وأراك تقول :

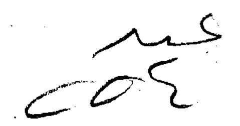
رحم الله الشافعي بقدر ما أسداه إلينا من تجارب ، وما قدمه فى ديوانه من خبرات ونصائح غاليات .

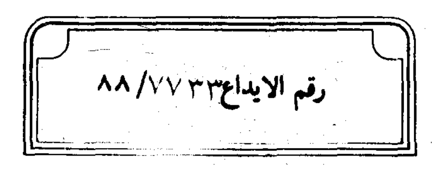
والحمد لله الذى بنعمته الصالحات



فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة





رقم الايداع ٣٣٧٧/ ٨٨